الأندلس وما جاورها

تاريخ الأندلس قبل الفتح الاسلامي
وفي ايامه الاولى

تأليف

اللواء الركن

محمود شيت خطاب

عضو المجمع العلمي العراقي

جمع وترتيب :

المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي



فرزة من مجلة المجمع العلمي العراقي

الجزء الاول ـ المجلد التاسع والثلاثون

بغـــــداد

شعبان ١٤٠٨هـ ـ آذار ١٩٨٨م

الأندلس وما جاورها

تاريخ الأندلس قبل الفتح الاسلامي
وفى ايامه الاولى

اللواء الركن محمود شيت خطاب

« عضو المجمع »

القسم الثالث
١ ـ فى اوروبة وإفريقية

حضارة العرب والمسلمين فى الأندلس

١ ـ الجذور :

لاشك في أن كثيراً من الغربيين ، يحملهم التعصب الأعمى على إخفاء محاسن حضارة العرب والمسلمين في الأندلس ولاسيما الحضارة الكبرى التي أوقدوا مصابيحها لأول مرة من اوروبا . ولم يقتصروا على ذلك ، بل أخذوا يختلقون سيئات وينسبونها إلى العرب سادتهم وأساتذتهم طوال ثمانية قرون . وسنلخص كتاب : (حضارة العرب في الاندلس) للعالم الشهير والمؤلف الكبير : جوزيف ماك كيب Joseph maccabe الذي ألف (٢٥٠) كتاباً وألقى ألوفاً من المحاضرات ، وسافر إلى شتى أنحاء العالم ، وأتقن عشر لغات ، حتى جعله الامريكيون أكبر عالم في الدنيا ، لأن المؤلف مسيحي وعالم ، فلايمكن أن يتهم بدينه ولا علمه .

ذكر المؤلف المنصف : أنّ القرون الطوال التي اتُسمت بها هذه المدينة المحمديّة من البرتغال غرباً والى السند شرقاً ، قد وصلت في القرن الرابع عشر عند العرب إلى المستوى الذي كانت قد وصلته الحضارة اليونانية والرومانية إن لم نقل إنها فاقتها . فقد ارتقى النوع البشري في إسبانيا خلال قرون عديدة

إلى أعلى درجات الهناء والغبطة والسعادة والشغف العام بكسب العلوم والفنون ، والأحسان إلى البؤساء ، وترقية الفنون والتهذيب ، ولعله إلى هذه الأيام ، لم لم تطلع الشمس على أمة أسعد ولا أهنأ ولا ارغد عيشاً ولا أكثر رغبة في التمتع بالجمال والعلوم والأعمال المجيدة من عرب الأندلس . ولا مراء في أن مؤرخينا – يقصد مؤرخي الغرب – لا يبسطون القول في هذا الفصل الذي هو أهم فصل في التاريخ لأسباب اربعة : اولها ، إنّ حال اسبانيا وصقلية والشرق من القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر ، هي نقيض لحال اوروبا النصرانية والقدرة إلى حد لا يتصور . والثاني ، مع أن العرب ، ابتدأ رقيهم من دركة متوحشة مثل القوط والفنداليين ، فقد شجعهم بقايا مدنية اليونان والفرس على أن يشيدوا مدنية زاهية في أقل من قرنين ، بينما سكان اوروبا تحت سلطات (البابوات) مضت عليهم سبعة قرون قبل أن يصلوا إلى درجة هي أدنى بكثير من مستوى العرب المسلمين . والثالث ، أن هؤلاء العرب الذين شيدوا هذه الحضارة الزاهرة كانوا من المتسامحين في الدين ولم يكونوا من المتعصبين . والرابع ، أن حضارة أولئك العرب ، كانت مقدمة للتجديد والتقدم الذي نحن فيه اليوم . إلاّ أنني أختصر القول هنا ، فأقول : إن هذه الحضارة هدفها المتعصبون من نصارى إسبانيا في الأندلس ، ثم يقول : لقد مضى ألف سنة إلاّ قليلاً ، على الناس ، بعد اندراس مدنية العرب في الأندلس قبل أن يوجد كتاب يستحق إضاعة الوقت في قراءته ، وبعبارة أخرى ، كانت للعرب في زمان مجدهم كتب قيّمة ، فلما مضوا وأُحرق أكثر تصانيفهم ، بقى الناس ألف سنة تقريباً ، لا يجدون كتاباً يستحق أن يُقرأ ، وقد قال استوارت في كتابه : (تاريخ الآداب العربية) : كان في الأندلس ألفا ألف مصنف ، ولم يصلنا من كتبهم إلاّ شيء قليل .

وقال المؤلّف في كتابه : (الأخلاق) : كان في المملكة الأسلامية طوائف عشرين ديناً منقسمين الى مائة مذهب ، وكلّهم كانوا يعيشون بسلام وتسامح . والخراج القليل الذي كان يُفرض على غير المسلمين ، كان في الحقيقة مدداً لبيت المال ، ولم يكن يُقصد به التّعالي عليهم وإهانتهم . والخلفاء كانوا يعلمون كيف كان النصارى يُعاملون المنحرفين من الدين في اوروبا يحقّ لهم أن يفخروا بأنهم أفضل وأعدل ملوك الأرض .

وقال في الجزء نفسه بصدد البحث في تاريخ المسلمين بمصر : وبعد بضع سنوات من فتح المسلمين للاسكندرية ، ثار أهلها وشقوا عصا الطاعة ، فاضطر العرب إلى هدم جانب من تلك البلدة الجميلة ، ولكن حتى مؤرخو النصارى الحاضرون ، يعترفون بأنهم لم يقصدوا بذلك تخريباً وانتقاماً . وإنما ألجأهم إليه المحافظة على البلدة ، أما الرواية القائلة بأن العرب وجدو من بقايا خزانة الاسكندرية كتباً كثيرة ، فأخذوا يوقدون بها أتاتين الحمامات مدة ستة أشهر ، فالمؤرخون اليوم يرون ذلك حديث خرافة . ولم توجد هذه الرواية في كلام أي مؤرخ إلا بعد مضي ستة قرون من فتح مصر . وقد بحث بتلــر (A.J. Butler) بحثاً دقيقاً في هذه المسألة ، في كتابه : فتح العــرب لمصر ، وختم كلامه بأنّ هذه الرواية أسطورة حقيرة ، وليس لها أساس تاريخي البتّة . وذكر استانلي بول هذا الكلام نفسه في الجزء السادس من كتاب : تاريخ مصــر ، تأليف فلينــدرس بتــري (Feinders Petrie) : ولسيں هناك بيِّنة على أنه كانت بالأسكندرية خزانة كتب عمومية في ذلك الزمان ، والظاهر أن النصارى كانوا قد أحرقوا جميع الكتب وأتلفوا ما بقي منها منها تدريجاً في مدة طويلة قبل ذلك بزمان .

وقال المؤلف ماك كيب : لا أعتقد أن الرق كان من سيئات العرب ، لأن عبيدهم كانوا أسعد حـظاً من معظم سكان اوروبا . وإذا علمنا أن النصرانية لبثت ثمانية او تسعة قرون تذم الرق ، ثم باركت على استرقاق السود ، فكيف تنظر من العرب أن يبطلوا الرق في ثلث تلك المدة ؟

وقال المؤلف : ولست الآن بصدد التحقيق في آداب العرب في النكاح ، ولكني من حيث أنا مؤرخ في الأخلاق ، أستنكر ما يقوله بعض مَنْ لم يحقق الأمر من عامة المؤلفين ، فذكروا ، أن العرب كانت أخلاقهم في تلك الناحية فاسدة ، وأنهم كانوا فاسدين هادمين لصلاح المجتمع ، فأن الحقائق التاريخية تكذب هذا القول ، وكل كتاب مغبر في الحضارة العربية ، بل حتى الفصول القليلة من تاريخ القرون الوسطى المطبوع في كامبرج ، تشهد أن العرب كانوا يعطون الحياة حقها ، وكانوا خير أمة أُخرجت للتناس ، من أوّل التاريخ إلى الآن . واذ قد عرفت أخلاق العرب واعتدالهم في أمور النكاح ، فدونك لمحة تبين لك أخلاق رجال الكنيسة ، فضلاً عن غيرها من الأوربيين في ذلك الزمان : إنّ عمل قوم لوط كان شائعاً في ذلك الزمان في جميع أنحاء اوروبة ، وفي اواسط القرن الحادي عشر ، رأي الكردينال بطرس داميان أن اللواط شائع بين القسيسين والرهبان في ايطالية ، وبلغ الأمر في أنّه ألف كتاباً في ذلك وأرسله إلى البابا (ليو التاسع) والتمس منه أن يتدارك ذلك الأمر ويأخذ في قطع ذرائعه وأسبابه ، يستغيث به أن يعاقب كل راهب او قسيس ، يثبت عليه اللواط ، يحلق رأسه والبصاق في وجهه وحبسه في غرفة مظلمة . ولما وصل كتابه إلى البابا ، تقبله وأظهر الارتياح به . إلاّ أنه رأى الا يبلغ العقاب بأولئك الفساق إلى الحد الذي اقترحه الكردنيال المذكور . ولكن بما هو أخف وأليق بالرحمة والشفقة ، فبقيت تلك الفاحشة جارية كما كانت . واسم كتاب داميان الذي اهداه إلى البابا : (عمورية) وهو اسم قرية قوم لوط . وفي كتاب داميان ما هو أدهى وأمرّ ، مما يدل على تمام الهمجية وهو الزنا بالمحارم ، وأنه كان شائقاً هناك أيضا .

قال المؤلف : لقد أطلقت لفظ : (العصور المظلمة) كسائر المؤلفين في كتابي هذا ، على أكثر عصور الممالك النصرانية انحطاطاً على العمـــوم ، وخصوصاً القرن العاشر المسيحي . تنصرت الممالك الاوربية قبل ذلك بأربعة قرون او بخمسة قرون او ستة قرون تقريباً مضت من يوم تغلبّ (البابوات) والأساقفة على إرادة الملوك ، وحملوهم على إبادة كل مصادر الألهام يخالفهم أو يباريهم ، فأغلقوا المدارس والمعابد . وقضوا على العلم والأدب ، وإذا استثنينا بعض المواضع في اوروبة كالبندقية ، إذ كان فيها بقية تافهة إصلاحية من علم اليونان تخفف من شرّهم وهمجيتهم ، فأن اوروبا كلها كانت في تباب وخراب اقتصادياً واجتماعياً وعقلياً . ومن ذلك الزمان أطلق الأساقفة والقسيسون والرهبان والراهبات الأعنة في الدعارة والشهوات البهيميّة ، ولم يكونوا في ذلك الزمان يسترون حتى بجلباب النفاق . ولو أن غنياً من أصحاب الملايين من أهل هذا العصر كان في ذلك الزمان ، لقدر أن يشتري مملكة بأسرها ، وكان تسعة وتسعون بالمائة خدماً يعاملون بأقسى ما يعامل به العبيد ، ولم يكن ولا واحد في المائة من الرجال ولا واحدة بالألف من النساء ، يقدر أن يقرأ . وكان الضعيف مضطهداً مقهوراً مسحوقاً تحت الأقدام مغموساً في الطين والدم ، بل حتى القوي كان مهدداً بالأوبئة الوافدة والسيوف اللامعة على الدوام والنجوم ذوات الأذناب في السماء وجينود العفاريت الهائاة في الهواء.

كذلك إن اردت أن تعرف أفكار النصرانية الاجتماعية ، فادرس القرن العاشر ، فلا زخارف أقوال الواعظين ، ولا كذب المعتذرين ، ولا الأذعان السياسي من المؤرخين ، بقدر أن يخفي عن ذوي الألباب عظيم تبعة الكنيسة ولاسيما البابوية ، في ذلك الزمان ، الذي بلغ فيه الانحطاط إلى دركة لا نظير لها . وإنّه لفصل من أشد فصول البشرية شقاء وحزناً من الفصول التي استشهدت الانسانية . لقد حطم بولس من ناحية وأوغسطين من ناحية أخرى مدنية الأنسان، فهل هذا هو الذي سميناه — بعيدين عن اتباع الهوى — مدنية الله ؟

لقد فاز في جميع بلاد أوروبا إلاّ زاوية واحد ، ألا وهي جزيرة (إيبريا) الاندلس التي نسميها اليوم إسبانيا والبرتغال ، فقد أُزيل الصليب من تلك الأرض في ابتداء القرن الثامن ، وحكمها المسلمون ، أجل قد لمعت رايات العرب المطرّزة المحمولة مع متن القرآن ظافرة تجتاح جبال (البرانس) وتتألّف في شمس جنوبي فرنسة ، وصارت الممالك النطرانية مهدّدة، والمدرسون الأغمار لى بقول المؤلف النطرني — في مدارسنا العالية ، لايزلون يقولون للأطفال الأغرار ، ناقلين من مختصرات كتيبات التاريخ غير النزيهة ، ويطنبون في مدح (شارل مارتل) الظافر جين لقى العرب في سهول فرنسة وصدّهم عنها وحفظ العالم من المدنية .

إذ لايوجد في الدنيا مدرس في جامعة أو مدرسة ، يجرأ أن يقول لتلامذته ما يعرفه كلّ مؤرّخ . أنّ العرب أقاموا حضارة من أعظم الحضارات العالمية ، وأنّ شارل مارتل وجنوده كانوا لصوصاً متوحشين برابرة ، وأنّ عرب الأندلس لو نجحوا في فتح أوربا وأقاموا فيها قرنين وأقاموا فيها مدنيتهم كما فعلوا بأسبانيا ، لكنّا الآن متقدمين خمسة قرون أكثر مما نحن عليه اليوم ، ولايستطيع عاد أن يعدّ مقدار الدماء والدموع والفاقة والعدوان الذي سببها ذلك الظفر المبين ناله شارل مارتل في سهول فرنسة الجنوبية ، وربما تتعجب إذا قيل لك : إنه يجب أن يضمّ درس حضارة العرب في الأندلس إلى دروس الدين ونشوء الأنسان وارتقائه . وسينقضى عجبك سريعاً جداً متى علمت أنه يثمر لنا درسين حيويين مهمين : الأول . إنه من أبطل الباطل ، أن يقال في أى بقعة من بقاع أوروبا . إنها لم تقدر أن تعود إلى المدينة بسرعة ، لأن الدول الرومانية قد سحقها الغزاة البرابرة من أهل الشمال تحت أقدامهم . والثاني إنّه البعث الحقيقي للحضارة الأوروبية لاعلاقة له بدين النصرانية ، بل هو عدوّها المبين .

قبل سنوات وقفت على جسر قرطبة ، وفكرت في ذلك المنظر المحزن للهيكل القطمي لقرطبة التي أصبحت قرية في سكانها البائسين وشوارعها الضيقة القذرة ونهرها المقذر . خكانها أقل من مائة ألف نفس ، في بيوط بالية وفقر شديد ، بينما كانت قبل ألف سنة أعظم مدينة في الأرض ، يقارب سكانها مليوناً من النفوس السعيمة المغتبطة ، وكانت لهم ثروة يمكن أن تشتري بها الممالك الأروبية النطرانية مراراً ، مع أميال معمورة بقصور المرمر الفخيمة ، تلمع بين الحدائق البهيجة ، ممتدة أمام ذلك النهر . وكانت فيها العلوم والفنون التي جذبت الناس إليها من كلّ ناحية من نواحي الدنيا ، حيث كان العلم والفن يقدرّان حقّ قدرهما .

كان الرومان قدمدّنوا إسبانيا وبريطانيا وفرنسة وجنوبي ألمانيا وإيطاليا ، أولئك الذين كانوا محرومين من الوحي ، شهوانيين ، فجّاراً ، ماديين ، جعلوا من أبتائها الأولين أمةّ مهذبة أرقى بلا حدود من أيّ أمّة من أهل الممالك النطرانية بعد ألف سنة ، وأنت إلى الآن تمشي في طرقهم المعبّدة وتعبر على قناطرهم في إسبانيا ، وهذه المدنينة الرومانية الأسبانية ، قد سحقتها القبائل التيوتونيّة تحت أقدامها ، مثلما سحقت فرنسة وأشد مما صغت بأيطاليا لقد زلزلها الفنداليون المتوحشون ، وحكمها القوط الغربيون وسكنوها وكما بقول اسكوت (ميخائيل سكوت)(Michal skot) : « لم تترق أمة قط تحت حكم الرئاسة الدينية ، وأنّ تقوى القسيسين الروحية ، قد قضى عليها تعطشهم الشديد إلى التسلّط والاستبداد في الحكم على البلاد وأهلها (الفصل الأول ص ٣٦٣) » . واسـانلى لين بول (Stanly Lane Poole) لم يجد بدأ أن يعترف بمثل ذلك في كتابه : العرب في الأندلس (ص ٧٠)فقال : «لاشك في أنّ القوط كانوا متعبدين ، إلاّ أنهم كانوا يرون أنّ عبادتهم تكفر ذنوبهم ، وكانوا في الفسق والفساد مثل أشراف الرومان الذين سبقوهم . وحتى القسيسون الذين كانوا يعظون ويحضون الناس على الأخوّة المسيحيّة — حين صـاروا أغنياء وملكوا الضياع ، اتبعوا السياسة المأثورة في الجور ، فصاروا يعاملون عبيدهم وخدمهم أسوأ معاملة ، كما كان يعمل أشراف الرومان قبلهم» .

وهذه صورة إسبانيا في القرنين السابع والثامن . ولما استوطن القوط الغربيون إسبانيا في القرن الخامس ، أظهروا على الفور ، أنّ قوة التيوتونين البربرية إذا تزوجت بثقافة الرومان ، تتولد منهما مدنية جديدة ، وذلك يبطل الرواية المزعومة : أنّ النصرانية لأجل أن تمدن البرابرة يلزمها زمان طويل . والذي يبطل الشطر الثاني من تلك الرواية ، وهي أنّ النصرانية كانت قوّة ممدّنة ، هو أن القوط الغربيين وكنيستهم جميعاً سقطوا إلى حضيض الجهل والرذائل والجور كسائر بلاد أوربا خلال قرنين .

والآن ، دعنا ننظر من أين جاءت القوة الممدّنة حقيقة ، كانت بلاد العرب بكراً لم تفتح ولم تمدن قط ، حتى أواخر القرن السابع ، فجاء محمد عليه الصلاة والسلام ، فأوقد نيران الحماسة الدينية في بلاد العرب بدينيه الجديد. فيعث في العرب نشاطاً عجيباً . فانطلقوا يفتحون البلدان ويدخلون الناس في دينهم في ارجاء العالم . وفي وقت قصير جداً ، استولوا على المدنيتين القديمتين الفارسية والمصرية . ولم يمض عليهم زمن طويل ، حتى أنشأوا مدنية عربية إسلامية . وكما قال سكوت : « لم يكن بين الهمجية والجهالة الصحراوية وبين الاستقرار والثقافة العقلية في عواصم الأمويين والعباسيين إلاّ أقلّ من مائة سنة . وكان العرب في الخشونة وعدم التهذيب الثقافي مثل التيوتونيين ، ولكنهم لما استولوا على المدنية القديمة صاروا متمدنين تماما خلال قرن واحد . ولكن ينبغي لنا اولا ان نعلم . كيف صار هؤلاء العرب الحمديون او الشرقيون (موراً) ودخلوا اوروبا ، بعد ما فتح العرب مصر ، كانوا لايزالون متعطشين إلى الفتح ، فولوا وجوههم تارة أخرى شطر الغرب ، وواجه أبناء العرب الصحراء فلم ترعهم ولم يعبثوا بها ، ولكن البحر أفزعهم ، وقد سمعوا أن وراء الصحراء ارضا خصبةزكية التربة : تونس والجزائر ومراكش، التي عمرها القرطاجيون والرومان وجعلوها غنية . ولذلك توجه أحدالقوادالعظام في (٢٠٠٠٠)من الخيل والركاب سنة٦٤٦م وتوغلوا في مجاهل الصحارى . فاجتازوا مسافة الف ميل من الارض على شاطيء إفريقية الشمالية ، وفي نحو نصف قرن ، حكم العرب الشاطيء الجنوبي للبحر الأبيض كله وطمحوا بأبصارهم بنهمة وشره إلى اراضي الشاطيء الشمالي الغنية .

واستوطن بعضهم مع المور – البربر السود – وكما يزعمون ، والحق أن البربر بيض بياضاً قاتما وليسوا سوداً . من الشاطيء المقابل لجبل طارق ، ولاشك أنهم تزوجوا منهم ، فلذلك صاروا يعرفون عند الأزوروبيين بالمور والقلعة الحصينة التي كانت في الشاطيء الاوروبي حركت رغبتهم ، وكانت بيد قائد يوناني يدعى يوليان ، تحت حكم . امبراطور الرومان إسمياً . وفي سنة ٧٥٩ م أو ٧١٠ م صار يوليان حليفاً للمور . ويحكى أنه ارسل ابنته إلى قصر ملك القوط الغربيين فاعتدى الملك على عفافها ، فاستشاط لها يوليان ، وعزم على الانتقام ، فدعا أمير العرب إلى العبور إلى الشاطيء الاوروبي وفتح إسبانيا ، ووصف له الكنوز والأموال المدهشة التي في قصر ملك القوط وكينستهم وصفاً شائقاً ، وأوضح له أن بلاد اسبانيا في انحطاط فلا يحتاج فتحها إلا إلى قليل من الجنود والعتاد .

وفي سنة ٧١٠ م بعد بعثة استطلاعية ، جهز العرب قائداً بربرياً ومعه (٧٠٠٠) جندي ، ثم أمدده بخمسة آلاف فارس من البربر ، وقبل انتهاء سنة ٧١١ م ، تم عرب تقريباً فتح شبه جزيرة أسبانيا ، وانحصر بقية الجنود القوطيين والأشراف والقسيسين في بقعة جبلية صغيرة على خليج بسكاي ، وصعد العرب على جبال البرانس ، وبنوا عليها سلسلة من القلاع ليحصنوا أنفسهم من سكان فرنسة ، الذين كانوا في نظرهم غريبي الأطوار متوحشين ، وبمرور الزمن ، فتحوا جنوبي فرنسة . ولما وصلت أخبار هذه الفتوح و ما فيها من الغنائم والأراضي الخصيبة إلى الشرق ، جذبت خلقاً كثيراً من العرب والبربر للالتحاق بأخوانهم في الغرب . وبعث الخليفة من دمشق والياً استعمله على بلاد الأندلس ، ومعه اربعمائة من أشراف العرب ، فتجدد في العرب التعطش إلى الأزدياد من الفتح . وفي وقت من الأوقات ، كان في بلاد فرنسة مائة الف جندي من العرب ، يجوسون خلال ديارها ويدوّخون أهلها . وفي ذ ك الوقت ، كانوا قد بلغوا درجة عالية من التمدن والرقي . وقد رحّب

أهل جنوبي فرنسة بهؤلاء الفاتحين ، ورأوا فيهم رُوماً جُدداً بالنسبة إلى الفرنج والجرمانيين الشماليين المتولىشين . ولا حاجة للاطناب في إخفاق العرب
الفرن والجرمانيين الشماليين لمتوحشين . ولا حاجة للاطناب في إخفاق العرب
وعدم تقدمهم في وروبا ، الذي يسمى في أكثر المدارس الغربية أنصاراً للتمدن والنصر نية ، وهذه تسمية خاطئة مائة بالمائة ، وبأي شيء عاد إلى وروبا من وبال ، بل لأجدر بنا ن ننظر في الخطة التي سار العرب عليها في إسبانيا نفسها ، حتى اوصلوها من الرقي إلى درجة جعلت بقية اوربا بالنسبة إليها همجية متوحشة ، ولكن قبل أن نجاوز هذا المقـــام ، ينبغي ان تعرف أن حضارة العرب وتهذيبهم تركا أثراً خالداً في أهل جنوبي فرنسة ، فبقوا قروناً طوالاً متصلين بالعرب من الوجهة الثقافية . فثنايا جبال البرانس كانت اول مصدر من مصادر الالهام لأوروبا البربرية . ولم يلبث أهل جنوبي فرنسة أن صاروا في بلهنية العيش والرفاهية ، وفشا فيهم الألحاد والانحراف عن الدين ، وليست حرارة الشمس فقط هي التي جعلت سكان ازرض جنوبي فرنسة المثل الأعلى في جودة الغناء والطرب .

ونعود إلى الأندلس ، فنقول : إن الخليفة في دمشق ، هو الذي يولي الولاة والحكام في الاندلس ، وكان هؤلاء الولاة من شعب قد سار شوطاً بعيداً في المدنية ، وكانوا دوماً ينفذون اوامر الخليفة ، فشكلوا على الفور الدوائر المدنية والسياسية والنظام الزراعي . ولم يجد العرب إغراقا فيما سمعوه من عظمة الكنوز الملكية والكنسية ، فوجدوا في طليطلة قاعدة ملك القوط الغربيين مقدرا هائلا من الذهب واللؤلؤ . على أنه من المحقق أنهم إلى ذلك الوقت لم يقعوا على الكنوز العظيمة التي كانت مخبأة تحت الأرض ، حيث دفنها القسيسون عند فرارهم . هذا وقد أخذ الفارون الأولون – ومنهم الأسقف – معهم كثيراً من الأموال المنقولة . ويروى أن جنود العرب ، وجدوا طائفة من رجال الكنيسة ، فارين . ووجدوا عندهم كرسياً يوضع

عليه الكتاب المقدس ، وكان ذلك الكرسي من الذهب الصلب الخالص مرصعاً بالياقوت الزعفراني والياقوت الأحمر والزمرد واللؤلؤ يساوي نصف مليون دولار ، مع النقود في ذلك الوقت كانت تساوي عشرة أضعاف ما تساويه اليوم.

لكن مدنية العرب في الأندلس التي بلغت اوج الرقيّ ، إنّما أُسست على الحالة الأقتصادية السليمة في تلك البلاد نفسها . ولا يتسع المقام هذا لذكر تاريخ العرب ، فكتاب (س . ب . اسكوت) الموسوم : « تاريخ المملكة (الأمبراطورية) العربية في اوروبا ١٩٠٤ م » ، يخبرنا بما شاء من ذلك في دقة وانسجام مع ذكر الأدلة ، ولكنه كبير من ثلاث مجلدات ضخام ، فلم تزل الحاجة إلى تأليف كتاب مناسب في الحجم ، واف في بيان عظمة العرب التاريخية ، وكتاب (استانلي بول) ، المسمى : « العرب في إسـبانيا ١٨٩٥ » في سلسلة : (أخبار الأمم) تأليف قوى الحجة جيد ، ولكنه على طريقة المؤرخين في ذكر ملاحم الملوك ونوادرهم . وكتاب شارلوت بونج : « أخبار النصارى والعرب في اسبانيا لى ١٨٧٩ » ، هو أيضاً تأليف نفيس بأسلوب عالٍ ، يدلنّا على ان المرأة النصرانية حتى هي أيضاً تأثرت بما كان للعرب من مدنية وحضـارة . وكتاب واسْنطون ارفنج الذي ادى خدمة جليلة في استحالة الناس إلى هذا العنصر الحي في نشوء المدنية يُقرأ الان ، وهو معدود من أحسن المصادر الادبية ، أما فنونهم وما بقى من مدنيتهم ، فكتُبُ كالفرات الموسومة : « آثار العرب في إسبانيا » وكتاب : « الحمراء » ، وكتاب : « قرطبة » ، وكتاب : « طليطلة » ، وكتاب : إشبيلية » وغيرها أفضل وأنفع مما كتب في ذلك . وكتاب دوزي : « الأسلام الأسباني » ، نشر بالانكليزية عام ١٩١٣ م ، ومع أنه من اوائل ما نشر من الكتب الحديثة ، فلا تزال قيمته عند الناس عظيمة ، وهو مع ذلك كتاب كبير ، ولعل تأليف : لين بول (العرب في إسبانيا) وتأليف كتاب : (آثار العرب) أسـهل تناولا وأكثر مناسبة ، وأوصى من يريد أكثر مما تسع هذه النبذة الصغيرة .

ولست بصدد ما يسمى : التاريخ ، إذ حدثت في مدة من الزمن اضطرابات في الأمور ، وكثر عزل الولاة وتبديلهم بغيرهم ، واشتد فيها التحاسد والتنافس وفسدت سيرة دار الخلافة في دمشق ، فكثر تدخلها في أمور الولاة ، فوقعت فتن عظيمة بين البربر والعرب الذين جنوا ثمرات الفتح ، وكانت تقع غزوات بين قبائل العرب الذين جاءوا من مختلف البلدان ، وآخر الأمر ظهر هناك شاب عربي من ذرية الخلفاء سنة ٧٥٦ م ، فقبض على زمام الأمور ، واتخذ قرطبة عاصمة له ، وجعل نفسه اميراً – وكان في الحقيقة ملكا لمملكة العرب في إسبانيا ، وهذا الأمير والأمراء الثلاثة الذين جاءوا من بعده هم الذين اسسوا هذه المدنية التي نحن بصدد شرحها .

٢ ـ العرب فى اوج مجدهم :

عظمة غرناطة التي هي أشهر مدن العرب في الأندلس اليوم ، يرجع عهدها إلى زمان متأخر جداً ، وسنبحث الان من مدنـيّة العرب التي كانت في أواسط القرن العاشر الميلادي . وكانت اوروبا في ذلك الزمان ، قد بلغت الدرك الأسفل في الانحطاط . وكانت روما متلوثة برجس الفساد ، وكانت الجهود العظيمة التي بذلها شارلمان لأصلاح قسم كبير من القارة المذكورة قد خابت . وكانت فرنسة نهباً مقسماً لغارات قبائل الشمال ، كما كانت انكلترا كذلك تعاني من غارات الدانماركيين عليها ، وكان القسيسون في كل بلد يعيثون فساداً . ولا يبالون مثقال ذرة بما نسميه : مدنية . أما إسبانيا ، فكانت بخلاف ذلك . كانت مزدهرة بالعمران ، وكانت حديقة تفوق الوصف في النتاج . وكان فيها تسعة من أمـّهات المدن ، وثلاثة آلاف مدينة متوسطة ، وعشرات الألوف من القرى . وكان على شاطيء نهر الوادي الكبير فقط اثنا عشر ألف قرية . ومع أن السير في ذلك الزمن لم يكن سريعاً ، فقد قال المؤرخون : كان السائر في بلاد الأندلس لا يسير مسافة يوم ، إلا ويمرّ على ثلاث مدن ، وأما القرى ، فكانت لا تنقطع تقريباً ، وكانت على أحسن حال

من العمران ، ومدينَـةَ قرطبة عاصمة لملكهم ، كان عدد سكّانها لا يقل عن مليون نسمة . وإشبيلية في وقت من الأوقات تحوي خمسمائة ألف نفس ، ومدينة المرية خمسمائة ألف نفس أيضاً ، وكان في غرناطة اربعمائة وخمسة واربعون ألفاً ، وفي مالقة ثلاثمائة ألف نفس ، وفي بلينسية مائة وخمسة وعشرون ، وفي طليطلة مائتا الف .

ويقدر مجموع سكان الأندلس بثلاثين مليوناً ، وزيادة السكان بهذا القدر العجيب ، هي في حد ذاتها دليل على الدرجة العالية التي وصل القوم إليها من المدنيّة . وقد علم من الاستقراء ، أن السكّان إذا كانت صحتهم جيدة ، وتدبير الصحة سائراً على أحسن حال ، فأن عددهم يضاعف في ربع قرن . وهذا يدلّك على عمل العرب من الأعمال الجليلة ، ويبيـن لك كيف أفسد الأسبانيون تلك الأعمال من بعد ونقضوها . وإذا علمت أن سكّان إسبانيا في القرن العاشر بلغوا ثلاثين مليونا ، فيجب أن يبلغ اليوم مئات الملايين ، فاعلم أنه اليوم لا يزيد عن اثنين وعشرين مليوناً . فرقم ثلاثين مليوناً في القرن العاشر ، برهان ساطع على ما كان للعرب من العلم والحكمة . وخذ مثلا إنكلترا ، فأن سكانها كانوا إذ ذاك مليونين او ثلاثة . وكانت العناية بترقية الزراعة أساسا لعمـران الأندلس .

والناس الذين لم يروا اسبانيا قط ، يرون فيها رأياً مبهماً غامضاً ، أغلبه مأخوذ من الروايات ورقوق الخيالة : أنها ارض خصب ، حضرة نضيرة وازدهار دائم ، وغناء وعشق لا ينتهيان . والأندلس ، وهي النـاحية التي استوطنها العرب ، إذ لم يهتموا كثيراً بالنـاحية الشمالية – لهـا صيت ذائع في ابتهاج القلوب وقرة العيون والهوى العذرى والورد وآلات الطرب ، وهذه شهرة لا تستحقها . وأنا أحب الأسبانيين ، فيمن أحبـّه من الأقـوام الذين سحت في بلادهم ، ولكن الطـرب ليس من شمائلهم ، وليست الأندلس ارض عشق وازهار وغناء ، وإسبانيا اليوم في بؤس وشقاء ، مصابة بـداء القسيسين ،

تحكم حكماً مرذولا ، ترى في ارباضها وفي أكثر أيام السنة زربيّة محترقة رقيقة من النّبات ، والفلاحون المجهودون بكل مشقة يحصلون معيشة ضنكا من الأرض ومتى زالت منها الملكية والكنيسة واستبدادا الجيش ، يجدد فيها نظام السقي وتصير فردوساً مرة اخرى . أما اليوم ، فهي محرومة من رأس المال والأعمال ، ولا ريب أنّها كانت فردوساً في القرن العاشر ، حتى نجحت مثل ذلك النمو في السكان . وكان لأهلها ذكاء فساعدوا به الطبيعة ، وكانت الانهار الصناعية والجداول ، توزع الماء وتروى الأرض ، حيث الفلاح الأسباني المسكين اليوم ، يرى المطر ينزل في رؤوس الجبال ، وتسيل به الاودية ، وتجري رأساً إلى البحر . والقيعان الواسعة العقيم اليوم ، كانت في زمن العرب حدائق غلبا ، وكانت تؤتي غلاّط ذهبيّة ، وحتى سفوح الجبال ، قد سُطحت وأُلحقت بالارض الزراعية . وفي كثير من البقاع ، كانت الأرض تعطي اربع غلاّت مختلفة في سنة واحدة . وكانت الأقوات كثيرة ورخيصة جداً ، وأضاف العرب جميع الوسائل الشرقية إلى الوسائل الرومانية في إسبانيا ، فكان الآس يفوح بريحه العطرية ، مقرونة بريح الورد والأترج ، والنخل باسقات في سطورها ، تواجه القبة الزرقاء ، وكانت بلاد جنّات ، جنات لا يوجد مثلها اليوم إلا في قليل من البلدان . وعلى هذا الأساس ، قام هناك نظام تجاري صناعي في غاية الأتقان . ولا اريد أن أذكر تفاصيل هذا الأمر ، وإنما اريد أن أذكر بالسيوف الفولاذية التي كانت تصنع في طليطلة ، والأدوات الجلدية التي كانت تصنع في قرطبة التي كانت أفضل الطرف في الدنيا ، وكيف كان الأسطول الجاري المغربي يطوف البحار في طلب النوادر والتحف الرفاهيّة لمأت الألوف من الناس ، وكان العرب رومانيسين جدداً . فأنهم جلبوا العلماء والمهرة في الصناعة والنحاسيْن وتجار الجوارى الراقصات وتجار الحرير وتجار الجواهر من جميع ارجاء الأرض . ولم يكن الخراج مجحفاً ، وكان في الغالب يتألف من عشر الغلاّت

وعشر ما يخرج من المعادن ومكاسب الصناع والتجار . ولكن كان الدخل مدهشا ، وكان دخل خليفة ذلك الوقت وهو عبدالرحمن الثالث على ما قيل أكثر من (٣٠،٠٠٠,٠٠٠) دولار سنوياً . ولاتنس أن النقود كانت لها قيمة في ذلك الزمان ؛ بحيث يمكن أن يشتري بها أضعاف ما يشتري بها الآن . وسنرى وصف هذه الثروة أوضح في الفصل التالي . وكانت الثروة متساوية عند الأعيان والتجار ، وقد قرأنا أنّ وزير عبد الرحمن الثالث أهدى إلى ملكه هدية وهي ضيعة غاباتها تحتوي على عشرين ألف شجرة ، وستين جارية حسناء ، ومائة من الجياد الصافنات، والبغال الفارهات ، وثمانمائة لأمَة (٨٢) من أجود العتاد ، ومايساوي مليون دولار من الذهب وغيره من النفائس وقد قدّر المؤلفون العرب الذين يختلفون عن جهلة أوروبا الرهبانيين جدّ الاختلاف هذه الهدية بـ (٥،٠٠٠،٠٠٠) دولار وسنرى في الفصل الآتي أكثر مما رأينا ، فهناك نرى من الترف الذي أوجدته تلك المدينة شيئاً يدهش العقول ، وعلى ما كانت عليه ملوك العرب العرب من البذخ والترف فأنهم لم يهملوا المقاصد الخيرية والمصالح العامة ، بل أنفقوا عليها من خزائنهم الواسعة إنفاقاً لم يفعل مثله من ملوك النصارى إلاّ قليل ، وسأعقد فصلاً أذكر فيه أعمال ملوك العرب في العلم والأداب والفلسفة . وهنا أشير إلى الملوك الذين انشأوا مدنية الأندلس (من سنة ٧٥٦ م الى سنة ٩٦١ م) كانوا حماة كرماء ومحبين أوفياء للعلم وأهله ، وكانوا أكثر الناس سخاءً وجوداً في مناصرة الشريعة والتعليم ، وهم أنفسهم في كثير من الأعيان لم يكونوا قاصرين في الأدب . فالخليفة الحاكم الثاني الذي كان ملوك النصارى في زمانه لايقدرون ان يكتبوا أسماءهم إلاّ قليل منهم ، كانت خزائن كتبه تحتوي على نصف مليون كتاب ، ويروى أنه كان ملماً بما تضمنته . وكان الخلفاء

(٨٢) اللأمة : اداة الحرب كلها من رمح وبيضة ومغفر وسيف ودرع . (ج) : لأم ولؤم .

ينفقون على كثير من المدارس من مالهم الخاص، وكان سخاؤهم بأموالهم الخاصة للمصالح العامة مثل سخائهم لها من بيت المال . وكانوا يرقبون الطرق المعبدة والجسور المتينة التي عملها الرومان بعناية تامة ، فيصلحون ما فسد منها، فكان للبلاد نظام للمواصلات يليق بصناعتها وتجارتها . وعجلات السيارات الثقيلة اليوم ، كانت تسير في طليطلة وقرطبة على الجسور العظيمة التي بناها الروم وجدّدها العرب . وجدّدوا القنوات وأنشئوا قنوات جديدة لضمانة الماء الكافي لا للسقي فقط ، بل لتوزيعه في المدن على البيوت. وكان للبريد سرب من الخيل السريعة بترده في جميع الطرق المهمة في المملكة . ولأجل أن نقدّر هذه الأشياء حق قدرها ، ينبغي أن تتذكرّ دائماً الأختلاف بين هذه البلاد وبقيّة أقطار أوروبا . فأمهات المدن الأروبية لم توجد فيها قنوات لصرف المياه القذرة حتي بعد مضي ستمائة سنة من ذلك التاريخ ، فكانت المياه المنتنة النجسة تجري في طول شوارع باريس ولندن غير المبلطة أو تجتمع فيكوّن منها حياض بعد ما علمت النهضة في أوروبا عملها قرونا طويلة . أما في مدن العرب . فكانت الشوارع مبلطة منورة . قد سوّيت فيها مجاري المياه أحسن تسوية في أواسط القرن العاشر . قال اسكوت : بعض القنوات التي كانت تحت الشوارع لصرف المياه القذرة في بلنسية ، تقدر أن تسع سيارة . وأصغر
تحت الشوارع لصرف المياه القذرة في بلنسية ، تقدر أن تسع سيارة . وأصغر
قناة منهنّ تقدر أن تسع حماراً . وكانت الشوارع مجهّزة أحسن تجهيز بالشرطة، وهذا النظام الصحي السامي كانت تعضده النظافة العامة التي يراها الأمريكيون في هذا العصر شيئاً واجباً . ولكنها كانت في ذلك الزمان في نظر الأوروبيين أعجوبة من آعاجيب الرقيّ التام ، فكان في قرطبة وحدها تسعمائة حمام عام ، وكانت الحمامات الخاصة كثيرة في كلّ مكان . أما في بقية بلاد أوروبا ، فلم يكن فيها ولا حمّام واحد. وكان أشراف أوروبا . رؤساء الأقطاع منهمكين في الرذائل إلى حدّ يحجم الأنسان عن وصفه . ولم يكن لبس الكتان النظيف

معروفاً في اوروبا ، حتى أخذت (مودة) لبس طراز الكتان من المسلمين ، ولم تكن الزرابي تصنع هناك ، وكان الحشيش يغطى ارض قصور الأمراء ومصطبات الخطابة في المدارس ، وكان الناس والكلاب ينجسون المحلات إلى حد يعجز عنه الو صف . ولم يكن لأحد منهم منديل في جيبه . وفي ذلك الوقت ، لم تكن الحدائق تخطر ببال أحد من أهل الممالك النصرانية ، ولكن في إسبانيا العربية كان الناس في جميع الطبقات يبذلون الجهود والأموال في تجميل حدائقهم العطرة البهيّة . وكانت الفسقيات تترقرق مياهها صعداً في صحون الدور والقصور والاماكن العامة . ولايزال في صحن الجامع الكبير في قرطبة حوضان جميلان من المرمر يزنيان ذلك الصحن ، حيث كان كلّ مصلّ يتوضّأ قبل أن يدخل المسجد ، ووصفها اسكوت في هذا الزمان (١ — ٦٧٥) فقال : « هذان الحوضان اللذان كانا من قبل متوضاء للمسلمين الغيورين من جميع الآفاق ، والان يمدان بالماء سكان قرطبة النصارى ذوي المناظر القذرة المنفردة والأخلاق الوحشية والجهل العظيم بمزايا الشعب الطاهر العاقل المهذب الذي تنتمي اليه هذه الذكريات الفاخرة من الفن والصناعة . هذان الحوضان يشهدان شهادة مرضية بأن لا دوام للمدنية العليا ، وان الأنسان يميل بطبعه إلى التقهقر والعودة إلى أحوال الهمجية . وتشهد به لسلطة القسيسين من المقدرة على فعل الشر ، وأن سياستهم التي لن تجد لها تبديلا ، أُسست على قاعدة احتقار مواهب عبيدهم العقلية » . وهذه العدد التي اعدها الخلفاء بفرط ذكائهم ، ظهر أثرها في زيادة خارقة للعادة ، على حين كانت جميع بلاد اوربا لا يتضاعف سكانها إلا بعد مضي اربعة او خمسة قرون . ولم تنحصر عنايتهم الأبوية في حفظ الصحة والحياة فقط ، فمع كثرة النفوس المفرطة ، كانوا الايرون أحداً يصاب بمصيبة إلا نفسّوا عنه الكرب وواسوه وهذا فيما لا يمكن اتقاؤه منها . وكان يساعدهم على أتقاء النكبات انخاذهم نظاماً حسناً في استخدام البطالين في إصلاح الطرق والاشغال العامة . وكان

عبدالرحمن الثاني قد أعلن أن كل مَن يريد العمل يمنحه . ودوائر العدل التي خلفتها محاكم التفتيش وغرف التعذيب ، كما اثبته المحققون ، كانت منزهة عن كل ريبة أو فساد . وكانت المعارف والتعليم كما سترى في فصل آخر ، أحسن مما كانت في ممالك الرومان ، ولم يكن يضاهيها إلا ما بلغه اليونان من المعارف العالية في ارقى أيامهم . والخلفاء انفسهم شيدوا المارستانات، ودور الأيتام ، كما كان يفعل ملوك اليونان — ومنذ زوال ملكهم زالت هذه المؤسسات من اوروبا — وكان الأعيان والتجار لا يألون جهداً ما اقتفوا آثار الخلفاء في العمل بهدي القرآن في مثل هذه الخيرات . وكان الخلفاء أنفسهم يعودون المرضى ويبحثون من المكروبين لينفوا كربهم .

والنساء اللائي كنّ نزلن إلى دركة الخدم في بلاد اوروبا عملاً بما روته التوراة في قصة حواء من المحال ولكراهية القسيسين السابقين للزواج وإيثارهم العزوبة . كنّ على خلاف ذلك عند العرب مكرمات مالكات حريتهنّ . وللكرم إن لم نقل البذخ والسرف اللذين حلا محلّ التقشف والتعصب في دمشق . انتقلا إلى الأندلس ، فكانا كافيين لحفظ مركز المرأة . والعشرة الخشنة التي يعاشر به المسلمون المرأة كما هو مشهور عندنا ، لم توجد في الأندلس إلا في اواخر أيامهم . والنساء في القصر الملكي بقرطبة . كنّ يساعدن الخلفاء في تدبير الأمور . وإن مالت طباعهنّ إلى غير ذلك لم يكن من الصعب عليهنّ الاتصال بالأدباء والشعراء واصحاب الفنون الصناعية . وكان طلب العلم مباحاً لهنّ بكلّ حرية ، وكثير منهنّ كان بهنّ ولع بالعلوم الرائجة في ذلك الزمان من فلك وفلسفة وطب وغيرها . وكانت النساء يتبرقعن خارج بيوتهن . ولكنهن كن مكــرمات . وفي منازلهن كنّ مشرفات ومحترمات .

ولا حاجة بي إلى أن أتكلم عن ظرف العرب وشهامتهم ، لأنهم هم الذين طبعوا الشعب الأسباني طبعاً لا يُمحى أبداً على الاحترام الشخصي واللطف التي لا يزال من خواصه المستميلة حتى في الصنّاع والفلاحين . وهناك مزية أخرى يمتاز بها العرب ، وهي التسامح الديني ، وفي أول لأمر كان هناك بلاشك شهداء يعني مقتولين لمخالفتهم في الدين – ولكن لا مناسبة بين ذلك وبين المذبحة التي عملها لأسبانيون أخيراً في ذرية العرب . وأما بعد استقرار المملكة العربية في الأندلس، فاذا استثنينا مُعاملتهم لطوائف الثوار من النصارى، كأهل طليطلة الذين كانوا دائماً ينتظرون الخلاص من ناحية الشمال ، فقد كان أهل الأديان جميعاً يعاملون بالحسنى ، وكانت على يهود والنصارى فريضة مالية قليلة تخصهم ، وكانوا يتمتعون بحماة حقوقهم ، فكثير عددهم وعظم بذلك الخرج الذي يؤخذ منهم ، فكن الخلفاء لا يشجعون على دعوتهم إلى الدين مخافة نقصان الجزية ، ورخصوا لنصارى طينطلة في المحافظة على كنيستهم الكبرى . واخيرا اشتريت منهم بثمن غالٍ جداً ، ورخصّوا لهم بأن يبنوا عدداً كثيراً من الكنائس . وكانت لهم في طليطلة ست كنائس ، وكانوا مستمسكين بالعلاقات الودية مع جيرانهم ، حتى أثار فيهم القسيسون الضغينة الدينية . وأما ما يخص يهود الذين كانو يتمتعون بعصرهم الذهبي حينئذٍ ، وارتقوا إلى درجة في العلوم ونالوا أعلى المناصب في دولة العرب ، فأتكلم عليهم في فصل آخر . وهذه النبذة العامة في ذكر مدنية العرب ، ستزادد وضوحاً وتفصيلاً عند الكلام على وصف حياة قرطبة وغرناطة . ولابد أن القارىء علم مما ذكرناه آنفاً تفوق المدنية التي يزعمون أنها وثنية تفوقاً خارقاً للعادة ، ولابد أنه رأي أثرها في اوروبا المتوحشة ، وهذا صحيح لا يمترى فيه أحد من المؤرخين . والمؤرخون لا يقابلون بين العرب والنصارى ، لأنهم لو فعلوا ذلك لكانوا كالذي يقيس أهل بوستن – مدينة في امريكا – بقبائل الاسكيمو ، وذلك عجب عجيب ، قال استانلي لين بول في شأن النصارى

الذين كانوا قد استولوا على شمالي إسبانيا في حينه: «كانت غزوات النصارى لعنة عظيمة على من يكون لهم فريسة. وكانوا خشناً جاهلين أميين لايقدر على القراءة منهم إلا قليل جداً .ولم يكن لهم من الأخلاق إلا مثل ما لهم من المعارف– يعني لم يكن لهم منها شيء–وأما تعصبهم وقسوتهم، فهو ما يمكن أن تتوقعه من الهمج البرابرة» .

ثم قابل بعد ذلك بين المحتلين لنظام الفروسية في القرون الوسطى – يعني أشراف اسبانيا – وبين العرب (ص ١٨٩) ، فقال : « اتصف النصارى في شمالي إسبانيا بأقصى ما يمكن من مضادة أقرانهم العرب . جاء العرب تلك البلاد ، وهم عشائر بدو حفاة ، ثم رقت طباعهم إلى أن صاروا شعباً عالي الكعب في التمدن . يستلذون الشعر واالطائف الأدبية . وقد وقفوا جهودهم لخدمة العلم واستقراء مسائله ، وفوق ذلك كله قد عزموا على التمتع بلذات الحياة إلى أقصى حدّ ممكن . وأذواقهم العقلية كانت لطيفة فوق العادة وظريفة،فالموسيقى والخطابة ودرس المسائل العلمية بتعطش لامزيد عليه يظهر أنها كانت طبيعية غريزية لهذا الشعب الزاهر.وكانت لهم سجية معرفة النقد والولع بالمجاز والاستعارات الجميلة وتقديرها على النحو الذي ننسبه اليوم الى الأمة الفرنسية، أما نصارى الشمال . فكانوا بضد ذلك على أقصى ما يتصور ، فكانوا جفاة غير مهذبين . ولم تكن آداب الفروسية التي أدخلها المصنِّفون في تاريخهم . لتخطر لهم ببال . وفقرهم الشديد جعلهم خدماً لكل مَن يريد استخدامهم ،وكانوا يبيعون شجاعتهم لكل مَنْ يدفع لهم أغلى ثمن لها . فكانوا يحاربون لتحصيل القوت » .

ثم أرانا – يعني اسكوت ، أن (سيد) (٨٣) الذي لايزال حتى اليوم زينة لكتب الأدب . وزهرة من ازهار الفروسية النصرانية ، كان خائناً قاسياً غداراً ناقصاً للعهود لا إيمان له ولاذمة . يبيع سيفه وعواطفه من كلا الفريقين المسلمين والنصارى .

---

(٨٣) يقال انه من سنة ١٠٤٠ وطار حيته فى الحرب التى وقعت بين امير قشتالة شانسوو رئيس نفار وابى عبدالله ملك غرناطة ، وكان تارة مع النصارى وتارة مع المسلمين .

ومِس شارلوت ينج التي كانت لها الشجاعة الكافية أن تقول الحق في شأن العرب والنصارى منذ خمسين سنة ، لم تجد ما تسلي به دينها إلا شيئاً واحداً وهو قولها : « قد بلغ الأسلام أعلى درجات الألهام في زمان مدنية العرب في الأندلس ، ولكنه انقرض بعد ذلك . وأما النصرانية ، فأن لها آمالاً في المستقبل غير محدودة » .

وفي هذا خطأ مضاعف ، فالأسلام هو الذي ألهم العرب مدنيتهم ولكنه لم يمت ، والمدنية المستمرة التي جاءت في العصور الأخيرة ليست من النصرانية في شتى .

والحقيقة أن مدنيتنا الحاضرة لا علاقة لها بالنصرانية ، ولكن المدنية التي دخلت اوروبا في القرنين الحادي عشر والثاني عشر ، كانت لها صلة كبيرة بالعرب ، أي أن مصدرها كان منهم ، فالنور الذي اشرق في اسبانيا ، لم يكن بدّ من أن ينبثق إلى اوروبا ، فالأسبانيون الذين استولوا بالتدريج على النصف الشمالي من اسبانيا ، عندما أخلد العرب إلى ارض الترف والبذخ ، وانحصروا في القسم الجنوبي الاندلس — لم يبقوا جامدين لا شعور لهم بثقافة جيرانهم — يعني أنهم اخذوا يقتبسونها ، وكان السيّاح والمسافرون من النصارى الذين يزورون مدن العرب ، يعودون إلى أوطانهم فيقصّون من من أخبار العرب وعلومهم وحضاراتهم الجميلة ما يهز النفوس ويشوقها إلى تلك الحضارة المتميزة الفذة .

٣ ـ مدينة النور والحب :

مدريد (مجريط) التي كانت في القرون الوسطى قرية مظلمة ، هي واقعة تقريباً في وسط إسبانيا ، وفي شمالها بالضبط سلسلة جبال وادي الرملة المتدثرة بالثلوج حتى حين مررت بها في الشهر السادس (جون — حزيران) ، وكان الجو حاراً . ولما انطفأت نار الغيرة وحبّ الفتح في قلوب العرب ، تركوا هذه الناحية الشمالية ذات البرد القارس لبقايا المملكة النصرانية ،

فانضم إليهم الغوغاء المجازفون من فرنسة ، وبمرور الزمن تألفت منهم أمة صغيرة ذات بأس وضراوة على القتال . أما كيف قاتلت هذه الأمة الصغيرة إلى أن استولت على إسبانيا كلّها واستردّتها تارة أخرى ، فهو حقيقة صفحة عظيمة في تاريخ العمليات العسكرية ، ويحق للأسبانيين أن يفتخروا من حيث هو استيلاء على الأرض ، ومن سوء الحظ قد قضى هذا الاستيلاء على المدنية قضاءً مبرما .

ولست بصدد ذكر العمليات العسكرية هنا ، والذي اريد بيانه ، أنه في سنة ١٠٨٥ استرد الاسبانيون اقصى مدنية في الشمال من أيدي العرب وهي طليطلة قاعدة ملك الأسبانيين القديمة . وهذه المدنية اليوم في حالة تدل على ما جناه الأسبانيون على المدنية في قضائهم على العرب . ولهذه المدنية موقع فريد لا تشاركها فيه مدينة اخرى ، فهي مبنية على كوم من الصخور مرتفع عن الأرض . والنهر محيط بها من ثلاث جهات . وفي القرن العاشر كان يعيش في تلك المدينة (٢٠٠,٠٠٠) نسمة في غبطة وسعادة . وسيوف طليطلة مشهورة عند كل مؤرخ وخبري . لأن قيونها كانوا أمهر القيون في العالم وعند الكلام على قرطبة يمكن أن تجمع شيئاً من اخبار طليطلة المدينة العربية العظيمة . واليوم بعد مرور ثمانية قرون من استرداد طليطلة ، ترى سكانها نحو (٣٠,٠٠٠) ألفاً من الكسالى . يدبون دبيباً في شوارعها المهجورة الهامدة . ويعيشون على كرم الزائرين . ولما ركب الأسبانيون ودخلوها ، يتقدمهم رئيس أساقفتهم . حين رفست المدنية تحت الأقدام وتلاشت ، شيدوا فيها كنيسة فخمة فيما بعد . ولكن من جهة اخرى انحطت المدينة إلى حال أنها صارت قرية كبيرة . فكأنما بنيت الكنيسة لخراب المدينة . والجسر العظيم الذي على النهر متين جداً ومفيد كثيراً فلذلك لم يقدروا على تدميره . وباب المدينة العجيب ، باب الشمس . قد أبقوا عليه ، فهو يظهر اليوم تذكاراً محزناً لماضٍ مجيد ، ينظر إلى الخراب . ويندب مجده البائد . وأما سائر المدينة

القديمة العجيبة ، فكأنها لم تغن بالأمس . ولو بحثت بجدٍ واجتهاد عن بقايا تلك العظمة الغابرة ، لوجدتها تلاشت وصارت كأمس الدابر . وتدور مبهوتاً في شارعها الرئيس ، وهو زقاق ضيق حيث كان ربع مليون من النفوس يعيشون في نعيم ، تطلب مكاناً طيباً تستريح فيه ، فيكون خاتمة تطوافك أنك تجد نفسك في حجرة قذرة ، تتغذى بين سائقي البغال والفلاحين. وانتحى مجد العرب نحو الجنوب إلى اشبيلية وقرطبة وغرناطة ومالقة وبلنسية ، وكانت طليطلة لذلك المجد كالطليعة . وكان الجنوب الشامس وطناً طبيعياً للعرب . ومن العجيب أن لا نجد إلا قليلاً ممن يعرفون أن قرطبة كانت تضاهي في عظمتها ومجدها بابل وروما وبغداد ، هذا مع أن عهدها ليس ببعيد . ومنظر قرطبة اليوم منظر محزن . ولا أريد ساليوم بهذا النوح والعويل الدائم الدائم أن أهيج أو احاول ان أهيج سخط الناس على الدين الذي ألهم الاسبانيين أن يبيدوا هذه المدينة العظيمة . وأنا أشدّ تأسفاً وتحسراً على خسارة النوع البشري مني على جناية أولئك الجناة . لو أن الممالك النصرانية عملت وترقت بالعمل الصالح الذي عمله اليونان في الشرق ، والرومان في ايطاليا ، وفرنسا وإنكلترا في شمال افريقية ، وبعمل هؤلاء العرب في طليطلة وإشبيلية وغرناطة، كيف كنا نكون اليوم ؟ لم عمت أفكار قرطبة وعلومها وتهذيبها جميع اوروبا لبلغت اوج المدنيّة وتقدم العلم فيها تقدما عظيما في القرن الثالث عشر ، ولكانت امريكا وسائر بقاع الأرض قد اكتشفت قبل تاريخ اكتشافها واستعمرت بحكمة وإتقان أكثر واسبق مما وقع لها ، وكان النوع البشري اليوم متمتعاً بثروة ورفاهية ورقي وحرية وسمو فكر مثلما سيكون حوالي سنة ٢٥٠٠ م .

فهل كانت قرطبة إلى هذا الحد عجيبة ؟ نعم ، كانت كذلك بالنسبة إلى القرن العاشر وبالنسبة إلى أي عصر آخر ماعدا زماننا هذا ، وكان بإمكانها أن تعلّمنا دروساً كثيرة من فنون المعيشة .

لم يبق من آثار قرطبة في القرون الوسطى إلاّ أثر واحد ، وهو جامعها الذي لايزال حتى اليوم جميع أطفال قرطبة يسمونه مسجداً . ولولاه ما تجشم أحد عناء السفر لمشاهدة قرطبة ، ولو كانت على بعد خمسة أميال منه ولكن الناس من جميع انحاء الدنيا يسافرون إليها ليشاهدوه . وهو أعظم معبد في الدنيا بعد كنيسة القديس بطرس ، وهو آية لانظير لها من الهندسة والبناء ، وظاهر هذا المسجد لايستولى على اللّب . ولم يكن العرب ، الذين كانوا يفضلون الأقامة داخل البيوت أكثر من خارجها يهتمون نسبياً ، بالمظاهر كثيراً ، وأما في الداخل ، فهناك العجائب . إذا دخلت الجامع من أيّ باب من أبوابه التسعة عشر يخيل إليك أنك تائه في غابة من أشجار المرمر ، ففيه ثمانمائة وستون سارية رقيقة من المرمر والرخام واليسب ، وفيه غير ذلك ألف واثنتا عشر سارية . وفيه تسعة عشر رواقاً ، ينتهي كل منها بباب من الأبواب التسعة عشر ، وله سقف خشبيّ منخفض نسبياً زخرف أحسن زخرفة بالأرجوان والذهب . وفي الأعياد الكبيرة توقد مائتان وثمانون ثريا من الفضة والنحاس ، ليحترق فيها الزيت المعطر . وتتلألأ فيها آلاف كثيرة من المصابيح ، فتلقى أنوارها على ذلك المشهد : وأكبر ثريا منها كان محيطها ثمانية وثلاثون قدماً ، يحمل ألفاً وأربعمائة وأربعاً وخمسين مصباحاً . ولها مرآة تعكس النور ، فيزيد شعاعه تسعة أضعاف . وفيها(٦٠٠٠) طبق من الفضة ، مسمرة بالذهب ومرصعة باللؤلؤ . وكان الجامع قد شُيِّد مع مضافاته في القرن الثامن والتاسع والعاشر . والمحراب الذي هو أقدس محل في مسجد العرب ، كان فيه حنيتان ، وكان أعظم زخرفاً من سائر المسجد . وآخر المحراب يشبه صدفة من رخام ، وله مدخل يتلألأ كالذهب الخالص أو الديباج بفسيفسائه الجميلة . وأحيل القارئ على كتب زخرفة البناء أو كتب الاستدلال ، ليرى عجائب (هذا الجامع العظيم . وكان بناؤوه من النصاري المنتمين الى الكنيسة اليونانية . وكانت بينهم وبين العرب مودة فجلبوهم ابنائه) ، وهو أثر لمدينة زاهرة لايضاهيها اليوم شيء في الدنيا كلّها . وكان عبد الرحمن الأول مؤسس هذه الدولة ، قد جعل مدينة قرطبة على مثال مدينة دمشق

التي قضى فيها أوائل عمره . وهو الذي ابتدأ بناء الجامع ،وأتمه الخلفاء الذين جاءوا بعده ، وبلغت نفقاته على ماحدّث به مؤرخوا العرب(٣٠٠و٠٠٠و٠٠٠) دولار . وإنما كان هذا آخر عمل عمله في حياته ، وقد شيدّ غير ذلك هو وخلفاؤه ورجال دولتهم قصوراً فخمة ومساجد كثيرة كانت تزيد المدينة كلّ سنة جلالة وبهاء . قدّر اسكوت سكان قرطبة في أزهى أيامها بمليون ، وآخرون قدّروهم بنصف مليون ، ولكنّ مؤرخي العرب حدثونا بأنه كان فيها عشرة آلاف قصر ، عشرة منها للملك ، و (١١٣٠,٠٠٠) دار و (٧٠٠) مسجد و (٩٠) حماماً عمومياً و (٤٣٠٠) سوق و (٥٠٠٠) طاحونة على شاطئ النهر والآن بعد تقدمنا كلّه ، فقرطبة بلدة منحطـّة حقيرة ، سكانها نحو مائة ألف ، من ذوى المناظر الكريهة الأموات ، وإن كانوا يعدون من الأحياء .

وكان للمدينة القديمة شوارع مساحتها عشرة أميال ، كلها مضاءة ومبلّطة تبليطاً حسناً ، وإلى الآن لا نزال نطأ بتبليط العرب في كثير منها ، ومجاري مياهها كانت منظّمة جيداً ، ولا تزال مئات من الدور باقية ، فيمكنك أن نتصور معيشة أهل البيت العربي : تدخل من باب حديدي ضخم جميل ، ثم تمرّ في دهليز قصير مظلم ، فتصل إلى صحن الدار ، وهذا الصحن هو وسط البيت ، فترى هناك أزهاراً ورياحين وبسطاً من الحرير والفسيفساء المتلألئة والنقوش العربية الجميلة ، وتجد في كلّ صحن تقريباً فسقيّة من المرمر ، كلّ ذلك يجعل المنزل مقاماً بهيجاً تحلو فيه السكنى ويطيب فيه العيش . وقد جلبوا الماء من أميال من نهر (سيرا) ، ثمّ وزّعوه على المنازل في أنابيب من الآنك . وكانت النظافة عند المسلمين فرضاً مقدساً ، حتى أنّ النصارى حين استولوا عليهم دمّروا الحمامات ! !

وعندنا وصف دقيق ، لقصر بناه عبد الرحمن ، على ثلاثة أميال من قرطبة . وإذا ذكرنا أنّ القياس ممكن ، فسنعرف شيئاً من معيشة أهل قرطبة في القرن العاشر . بُني القصر لتكريم امرأة ، وهي محظيته الزهراء ، فجعل

لها تمثالاً جميلاً من المرمر نصبه على باب القصر ، وكان يشتغل في بناء هذا القصر عشرة آلاف رجل وثلاثون ألف دابة ، وبقوا يعملون فيه سنين ، وينبغي لنا ان نفرض أنّ هذا القصر قد بهر مؤرخي العرب في ذلك الزمان ، فلم يقدروا أن يرووا تفاصيله على الحقيقة ، لأنّ وصفهم كان لايعتمد عليه تقريباً . فقد زعموا أنّ له خمسة عشر ألف وأربعة آلاف سارية جلبت من اليونان وإيطاليا وإفريقيّة وغيرها . والأيوان الأوسط كانت سواريه من المرمر والحجر الشفاف ، وكانت رءوسها مرصّعة باللؤلؤ والياقوت ، وكان جريدة سقفه من الذهب والفضّة ، وكانت جدرانه وقبّته من العقيق اليماني ، وكان له ثمانية أبواب من الأبنوس والعاج مرصعة بالجواهر ، وكان في القصر ثلاثمائة حمام فاخر مستجمع لشروط النعمة ، وكانت الحدائق واسعة جداً ، حتىأنّ الحيتان التي كانت في حياضـــها ، وكانت كلّهـــا من (السّمك الذّهبي) كان قوتها اليومي اثنى عشر ألف رغيف من الخبز . وكان عدد الخدام الذكور (١٣ و٧٥٠) وعدد الأناث (٦٣١٤) وعدد الخصيان والوصفان (٣٣٥٠) . وقد أخبرنا بما كان يستهلك ثمّ من الطعام يومياً ، بحيث لايخفى علينا منه أوقيّة واحدة . وكان طعاماً فاخراً هنيئاً مريئاً . وكان هناك غير من ذكرنا العساكر والموسيقيون والشعراء والراقصون ورجال الدولة والأدباء لقرض الشعر والاشتغال بالموسيقى ، بل حتى المباحثات العلمية والفلسفية ، كان لهما الاعتبار التام هناك . وكان الأعجاب بهما لايقصر عن الأعجاب بقدّ جارية حسناء أو عينين كحلاوين لخريدة محظيّة بيضاء في غلالة حريرية سوداء من غواني الحريم . وكان عدد حرس الخليفة الخاص اثنى عشر ألفاً من خيرة الجنود ، يلبسون أفخر الحرير ، ولهم مناطق مذهبة وأجفان سيوفهم كذلك كانت مذهبة ومقابضهـا مرصعة بالجوهر والأحجار الكريمة ، وكان هذا القصر عاشر عشرة من القصور الملكية . وحوله كانت مساكن جميلة لخاصة الخليفة ورجال دولته المقربين وأرباب المناصب العالية . وكذلك كانت مدينة الزهراء

مدينة تسبى الألباب وتسحر العقول بجمالها ، وإن سألت عن حالها اليوم ، فهي في حالة لاتستطيع أن تشبع قليلاً من المعز . وكل شيء كان هناك ملكياً ، والموسيقى والمغنى الخاص لعبد الرحمن الثاني كان أديباً من أعاجيب الزمان ، وكان مرتبه (٠٠٠ ، ٤٠) دينار من الذهب في كل سنة ، وهو أكثر بكثير من مرتب رئيس الولايات المتحدة . وهـذا النعيم الذي لم يمضي عليه إلاّ أقلّ من خمسمائة سنة ، لم يحفظ منه الأسبانيون مثقال ذرّة . وكان يصبّ في خزائن الملك في كلّ سنة ، نهر مفعم من الذهب ، فيفيض منها على الأشراف والأمراء والأدباء والعلماء وكبار التجار وغيرهم . وكانت القصور الفخمة ممتدّة على شاطئ الوادي الكبير مسافة عشرة أميال ، وكانت أسواقها أغنى أسواق الدنيا ، فلم يسمع سامع بشيء من التوابل أو العطور أو المنسوجات الفاخرة أو الكتب الخطيّة النادرة أو البُسط والزّرابي البديعة أو آلات اللّهو في أي رجاء من أرجاء الدنيا ، إلاّ وقد جلبت إلى تلك الأسواق . وحال أمريكا اليوم بالنسبة إلى الدنيا القديمة هي حال الأندلس في ذلك الزمان بالنّسبة إلى غيرها من البلاد ، ولكن الأندلس كانت أعظم من وجهة المدنية . وكانت الحدائق العامة المعدّة للتنزه نزهة للأبصار ، وستعلم شيئاً من ولوع العرب بالحدائق والجنّات ، إذا رأيت الحديقة المعروفة بالقصر في إشبيلية ، وكان العرب يتوخون الجمال في كلّ شعبة من شُعب المعيشة .

والعرب أنفسهم كانوا صنّاعاً ماهرين في الأدوات المعدنية والجلدية ، وأحسن المنسوجات الحريرية والكتانية . وكانوا يصنـعون الفسيفساء العجيبة ، وينقشون النقوش الجميلة على الأواني والادوات المنزلية . وكانت لهم مهارة عظيمة في دهن الأواني الخزفية ، وكانو حاملى لواء زخرفة البيوت والقصور وزينتها ، وبلغوا في ذلك درجة عالية لم يعرفها أحد في الدنيا غيرهم ، وكانت لهم معادن كافية من الرخام والمـرمر ،ومع ذلك كانـوا يجلون المرمر من اليونان وإيطاليا وإفريقيّة . وكانت سفنهم تجلب المقادير العظيمة من خشب السدر

والعاج والأبنوس وأحسن التوابل والطيب الذي يمدهم به الشرق ، وكانوا يجلبون من هناك الذهب والفضّة والجواهر والمحار والحجر الشفّـاف وحجر اللآزورد وجلود السلاحف وكلّ مادة معروفة من مواد الزينة . وكانت خزائنهم المالية عظيمة بالنسبة إلى عصرهم ، إلى حدّ أنّهم كانوا يسيطرون على الدنيا كلّها من الوجهة المالية ، وقد عرفوا كيف يقفون أموالهم على فنون المعيشة ، إلى حدّ لم يصل إليه إلا قليل من الأمم . وقصور الأشراف وأصحاب المناصب والأدباء ، كانت تقارب في الفخامة والسعة قصور الخلفاء ، وحتى منازل أرباب الحوانيت كان لها جمال ورفاهية محتها أعاصير النكبة التي أنزلها الأسبانيون بالأندلس . وعلاوة على ذلك ، فمات الحمامات المحشاة أطرافها بالمرمر والفسيفساء ، والحدائق العامة البديعة التي كانت ممتدة على شاطئ الوادي الكبير . كانت نعمة ورفاهية للناس جميعاً من الخليفة إلى أدنى الطبقات . وفي كلّ أمر من تفاصيل معيشتهم ، أبدوا سلامة ذوق لايمكننا نحن أن نأتي بها . والعشرون ضاحية التي كانت حول المدينة ، لم تكن أسماؤها : (بوتس فيل Pottsville) و (نيوتن Newton) بل كانت أسماؤها هكذا : وادي الفردوس ، والوادي الجميل ، وحديقة العجائب ، وهكذا . ولقد صدقوا ، فأنها كانت كذلك ، وكانت مبثوثة بينها المنازل البيض المشرفات . وحولها غابات الاترج والنخيل والسرو الواسعة وروضات الأزهار الغضّة الباقية طوال السنة تجري من تحتها الأنهار والجداول فالبحيرات والعيون والمخابىء ، والمغارات . وصفوف الأشجار ، وكل فكرة عند الفلاحين المتفننين في الغرس والزراعة ، وقد استعملت هناك مما تشتبهيه الأنفس وتلذّ الأعين . واذا اعتبرت النهر على الجسر العجيب الذي يبلغ طوله (١٢٠٠) قدم وارتفاعه فوق الماء (٩٠) قدماً ، تجد ضاحية حفت بالحدائق البهيجة والروضات الجميلة ، تسحر الألباب ببهائها . ولو لم يكن هناك سواها ، لكانت المثل الأعلى في المدن

وإذا انقضى العمل في كل يوم ، كانت قرطبة ترى معترك ضحك وغناء وذنوب يفوح عطرها ومباحثات عقلية دقيقة وموسيقى شجية بجميع الآلات التي كانت معروفة لذلك العهد . وكان العباد والزهاد في قرطبة كثيراً ، لأنهما كانت تحوى أعظم المعابد العلمية والدينية وفطاحل العلماء في الدنيا . وقد (سنّ) أحد الخلفاء ، وكان دينا — قانوناً يقضي ببناء مسجد في كل اثني عشر بيتاً ، ونفذ قانونه ، إلا ان الظرف واللطف كان هو الغالب . وأكثر الناس كانوا يلتزمون بالعبادات الأسلامية التي ينص عليها الاسلام ، ولكن لم يكونوا متعمقين في أصولها النسكية التقشفية . فلا دمشق ولا بغداد وحتى إنطاكية في اوج مجدها ، لم تكن مركزاً للسرور مثل ما كانت قرطبة ، في حين كانت اوروبا متدثرة بالخرافات الموحشة ، ولم تكن في الدنيا قط بلاد اسعد ولا أجمل ولا أنعم عيشة من الأندلس في القرون الثلاثة : العاشر والحادي عشر والثاني عشر للميلاد .

و أعظم مزية يمكننا أن نمدح بها عرب الأندلس ، هو أن نذكر أن شغفهم بالشهوات واستهتارهم باللّذات ، كان متحدا على نسبة سواء مع ولوعهم بالتمتع بالعلوم العقلية والمعارف الدقيقة المحققّة التي كانت منتشرة بصورة اوسع مما كانت عليه في روما او أثينا . ولم يكن في الدنيا كلّا ، ولا هو كائن اليوم ، بلد يكرم فيه العلماء والأدباء ويكافئون بالجوائز العظمى ، مثل ما كان في الأندلس . ولم يكن في الدنيا بلد غير الأندلس ، يحوي خرائز الكتب العجيبة والمدارس والكليات العامرة ، وجمعاً عظيماً من خيرة والكتّاب البلغاء وذوقاً عاماً في المباحث العقلية مثل ما كان في الأندلس ، والحلقات أو الدوائر الصغيرة من الرجال والنساء المهذبين الذين كانوا في إيطاليا يبحثون في الفنون والآداب في بدء النهضة ، إنما كانت تقليداً ضئيلا للعرب .

٤ ـ علوم العرب وآدابهم :

هناك حقيقة محزنة ودليل يملأ النفس غمّاً وأسًى ، يدل على أن الفكر البشري لايزال ناقصاً وبعيداً عن الرقي الحقيقي ، وذلك أن الذين يعرفون كيف يعيشون في كل عصر قليل ، وبعد مضي ملايين من السنين على وجود الانسان وستة آلاف سنة على حدوث المدنية والشعور بالوجود ، ونحن الآن نختصم في ما هو الأعلى للمعيشة ، وأكثر الناس لا يعرفون كيف يستعملون نعمها استعمالا موزونا . وتبعة ذلك معظمها يعود إلى النصرانية ، ولكن الطبقة العليا من اليونان والمثقفون المفكرون وصلوا إلى قريب من المثل الأعلى . وعندهم أن الحكمة كل الحكمة أن نعرف كيف نعيش ـ وذلك إنما يكون بترقية الجسم والعقل والأخلاق بعناية سواء وحماسة ســـواء . لا يفضل واحد من هذه الثلاثة على قسيميه بشيء ، وحتى أثينا كانت فيها معركة مستمرة لا نهاية لها بين الفلاسفة الاشراقيين أتباع زينو اعداء الاستهتار اللذ وخصومهم السايبرانيين أنصار الاستهتار بالشهوات وزعمائه ، حتى أبو قراط نفسه لم يكن يعطي للجسم حقه خلافاً لما يعتقده فيه عامة الناس . ولا نقول : إن العرب وصلوا إلى درجة الكمال ، لكن مثلهم الأعلى كان معقولا وممتازاً ، والنصارى الذين يطعنون فيهم ينقبون في تواريخهم الواسعة ، وفي الاكثر في التواريخ الخسيسة التي ألفها اعداؤهم الأسبانيون غير الموثوق بهم ـ حتى إذا ظفروا على سبيل الندور بشيء من القسوة أو الخيانة او الفجور ، أخذوه فرحين . وأطالوا في شرحه بقصد التشفي والتشنيع . وكل مدنية تشعّ على عشرين مليوناً من النفوس السعيدة المغتبطة ، لابد أن يوجد فيها أمثال تلك الهفوات النادرة ، ولكن إنما يستغلها ويتجاهل الأخلاق الحسنة التي كانت غالبة عليهم ، المؤلفون المخادعون الذين يُضلون مَن يقرأ كتبهم ، بذكر أعمال استثنائية وقعت على سبيل الشذود والندور . لقد قرأت جميع التأليف التي ألفت في سيرة العرب مستند على ما كتبه المعاصرون لهم ، فرأيت يقيناً لاريب فيه ، أن أخلاقهم كانت

سامية . ومن فضائلهم انهم تجاهلوا الزهد والتقشف ، وتمتعوا في حياتهم بجميع اللذات التي يقض بها الاستعمال الحكيم للنساء والشعر والموسيقى . وأما غيرتهم على شرفهم وشهامتهم ، فهناك ألف قول وألف عمل يجليها في أكبر التأليف التي أُلفت في تاريخهم ، وقد ظهرت آثارها في شهامتهم المعروفة في الحروب .

وليس ظهورها بأقل من ذلك في تسامحهم مع السكان والزوار من النصارى مادامو مستقيمين في سلوكهم ، وفي معاملتهم ليهود بمقتضى الأخوة التامة ، وكرمهم الذي هو كنار على علم على المرضى اليتامى والأرامل والفقراء وكانوا يلتزمون بأوامر القرآن الأنسانية في الأحسان إلى المرضى والمحتاجين . وقد التزموا بتلك الأوامر تديناً وكرماً أكثر من الزام النصارى بمواعظ عيسى في مجلس وعظه بالجبل . واذا درست التواريخ حق دراستها ، ترى أنما يتبجح به النصارى من كونهم متمسكين بأعمال الخير والأخوة التي جاء بها الوحي تراه يتضاءل ويتلاشى أمام ما عمله العرب المسلمون من ذلك ، كان عصر ملوك الرواقيين أتباع زينو في روما عصراً عظيماً في الخيرات والمبرات ، وكان عصر المسلمين في الأندلس عصراً عظيما في الأحسان والبر وأعظم منهما عصرنا هذا الحالي . وأما نصيب النصارى من عمل الخير والاحسان إلى المحتاجين من النوع البشري في سجلات التاريخ في القرون التسعة عشر الأخيرة فضئيل ناقص إلى حد يجعله مسخرة للساخرين ، والحاصل ان الطاعنين في العرب لا يستطيعون أن يغمزوهم إلا بالانهماك في الشهوات ، ولكن ذلك العيب المزعوم، سيكون مزية فخر إذا علمنا أن العرب كانوا يزنون مطالب النفس والعقل كليهما بقسطاس مستقيم ، وجيلنا الحاضر على ماورته من تجارب سته الآف سنة من سير حكامها وروايات أديانها ، حتى اجتمع له في ذلك ما لم

يجتمع لجيل قبله ، منقسم إلى فريقين – ما عدا البؤساء الكومستوليين (٨٤). فريق يجدون في تهذيب النفس وترقية العلوم العقلية والفنون العالية ، ويحتقرون الشهوات ويواجهونها بوجه عبوس . والفريق الثاني قوم ذوو دماء حارة ، انهمكوا في الخمر والفسق ، وأطلقوا لأنفسهم العنان ، وأعطوها أقصى ما تريد من شهواتها ، حتى صاروا كالأنعام بل هم أضل سبيلا . وكلا الفريقين معجب بنفسه ، وكل حزب بما لديهم فرحون ، وكل منهما يعيب الآخر ويرميه بالمثالب ، وكلاهما في ضلال مبين .

ومن المزايا التي اختص بها العرب ، أنهم يرون أن السعادة وكمال النعمة إنما هي في المعيشة التي كانت تكفل حظ النفس والعقل في التهذيب على السواء . وكانت الدرجة العليا التي أدركوها في الشعر ناشئة عن ذلك الرقي الموزون . وكل الطبقات من أصحاب الحوانيت إلى الخلفاء كانوا ينشئون وينشدون الشعر . وكثيراً ما ترى جماعة من الرجال والنساء في ليالي الصيف في حديقة غناء تعبق روائح رياحينها في ساحات البيوت الجميلة ، جالسين يتباحثون في الأشعار ، ويتنازعون بلطف في المساجلة في منتوجات أفكارهم . وكان ولعهم بالموسيقى ودرسهم لها يساوي شغفهم بالعلوم والآداب ، وكانت الأندلس حقيقة في تلك الأيام ارض غِناء وغرام وأزهار ونوافح طيب .

ولكن هذا الشغف بالموسيقى كان مزدوجاً مع شوق أعظم منه إلى استقراء العلوم العقلية إلى حد كدنا نعجز عن فهمه فأين يوجد في عالمنا شخص يداني

---

(٨٤) طائفة فى امريكا ،استها انقونى كومستوك (Anlhony Comstoc) (١٨٤٤ – ١٩١٥) ، وكان متقشفاً ، وكان جندياً فى الحرب الداخلية الامريكية ، وكان يريد أن يصلح اخلاق الجيش . ثم دخل فى سلك الانساء وصار زعيماً للثورة على فساد الأخلاق ، ولكنه كان جاهلاً ، لأنه كان يعظم أمر الجزئيات ويهمل الكليات ، ومن المعلوم انه لم ينجح فيما حاوله .

زرياب القرطبي (٨٥) . الموسيقى الشهير الذي كان مرتبه (٤٠,٠٠٠) دينار ذهباً في كل سنة ، يعرف عشرة آلاف صوت من نغمات الغناء . وأنا لا أدري هل ذلك فوق مقدرة المغنين في عصرنا أم لا ؟؟ ولكني أعلم أنما عندهم هو جزء مما كان عند زرياب ، وكان عالماً بالعلوم العالية في ذلك الزمان ، كالجغرافية والطب والفلسفة مثلما كان عالماً بالموسيقى ، فاخترع عطوراً جديدة وأدهاناً لتجميل اللون ، وجلب الأغذية والعقاقير ، ووضع طرازاً صحياً للملابس ، وأصلح النظام السياسي ، وأوجد في الناس تهذيباً في الوجهة الاجتماعية ،وكانت نوادره وحكمة تروى حكماً وأمثالا في جميع بلاد الأندلس .

وأين يوجد حتى في هذا العصر الحديث ، ملك مثل الحكم الثاني ، الذي كان له شغف في العلوم ، حتى إنه كان له رجال يجمعون الكتب من جميع النواحي في إسبانيا واوربا ، حتى صارت خزائنه الخاصة تحتوي على أقل تقدير (٤٠٠,٠٠٠) وبعض المؤلفين يقول (٩٠٠,٠٠٠) كتاب خطيّ . وقد أضافوا الى الأشعار العربية والفارسية تراجم اشعار اليونانيين . وترجموا إلى العربية كتب ارسطو وأفلاطون وأقليدس وسائر كتب المتقدمين . وألفوا كتباً كباراً تبهر العقول في الطب والجغرافية والفلسفة والفلك والكيمياء والتاريخ . ومؤرخو ذلك العصر يريدوننا أن نعتقد أن الحكم كان عالماً بمضامين الخمسمائة ألف كتاب التي كانت تشتمل عليها خزائنه . وكانت تأليفه محل الأعجاب في جميع العالم ، ولم يكن مستبداً ارستوقراطياً من الوجهة العقلية ، وأنشأ في قرطبة عشرات المدارس غير ما كان بها من قبل ، وأمر أخاه (وزير المعارف) أن يسهل على جميع الناس اكتساب العلوم . والمؤلفون الذين يتجاهلون الحكم الثاني ويخوضون فيما وقع من عبدالرحمن الأول من القسوة على سبيل النذور والقلة ويفيضون في قسوة عبدالرحمن الثالث، يخدعون قراء كتبهم .

(٨٥) أصله من بلاد فارس ، سافر إلى العراق وتتلمذ على إسحق الموصلي ، وقرّبه هرون الرشيد ، ثم سافر إلى الأندلس ، ودخل قصر عبد الرحمن الثاني ، وتوفى بالأندلس فى حدود سنة ٨٥٢ هـ .

وهذه الغيرة على بث العلم كانت عامة في ملوك العرب ، ونظام التعليم عندهم يذكر بما كان من ذلك في روما الوثنية ، ويبشر بنظام التعليم في هذا الزمان . وكان ذلك وادياً خصيباً في صحراء الجهل الكبرى التي امتدت من القرن الرابع إلى القرن التاسع عشر ، لأن النصارى الاسبانيين اخرجوا مدارس الأمة ، كما فعل اسلافهم النصارى . واسكوت الذي هو أقوى برهاناً وأكثر تفصيلاً ، أخبرنا مراراً أن المعارف كانت منتشرة في جميع الطبقات : « كان في كلّ قرية مدارس كافية لحاجة أهلها وكان التعليم فيها قائماً على أفضل التسهيلات وأنفعها ، كل الأطفال الذين قعد بهم العدم عن التعليم ، كانت الحكومة تعتني بهم وتؤسس لهم مدارس مجانية على نفقتها (الفصل الثالث – ص ٤٩٧) .

وعلى هذا نقول : انه يتعذر أن يوجد فلاح أندلسي لا يعرف القراءة والكتابة ، في حين كان ملوك بقية اوربا لا يقدرون أن يكتبوا اسماءهم في توقيعاتهم ، وكذلك اشراف الروم من أعلى الطبقات لم يكونوا يقتدرون على القراءة والكتابة ، وتسع وتسعون ءفي كل مائة من أهل الممالك النصرانية كانوا أميين تماماً ، وكانوا على غاية من الجهل لا يمكن تصورها ، أضف ذلك أن المعارف عند العرب كان معناه اوسع بكثير جداً مما كان في روما الملكية ، وكان لهم من الغيرة على العلوم مثل ما كان لهم من الغيرة على الشعر .

وكانوا يعتنون بالتعليم العالي ويعضدونه أكثر من التعليم الابتدائي ، فقد كان في قرطبة ثمانمائة مدرسة ، وكان التلاميذ يأتون من أقاصي الأرض ليتعلموا فيها ، وكانت للفقراء منهم دور اقامة اعدتها الحكومة مجاناً لهم ، ولهم فيها ارزاق من بيت مال الدولة تقوم بحاجتهم من طعام وشراب ولباس ، وكانوا يعطون زيادة على ذلك شيئاً من الدراهم معلوماً لكل واحد منهم ولم يكن هناك اختصاص في التعليم الا لمن يريد الختلص من بعض التبعات . وقد قال اسكوت : « إن الجامعات والكليات الأندلسية كانت متسامحة : ترحب باليهود والنصارى

والمسلمين على حدّ سواء » . وللعرب مثل سائر : « افترق العالم فريقيق : فريق لهم علم بلا دين ، وفريق لهم دين بلا علم ء» (٨٦) .

مَن ذا الذي لم يقرأ يوماً من الأيام ، في مدرسة العمر العجيبة ، تأسيس الجامعات الأولى الذي ألهمته النصرانية بزعمهم في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ؟ وفي سائل والعجب آخذ مني كلّ مأخذ : كم واحداً ممن قرأ كتابي هذا ، قرأ قط أن إسبانيا المحمديّة كانت قبل ذلك بثلاثة قرون ، كانت متعطشة حرى ولا حرارة المحموم للعلم ا للعلم الحقيقي — لالترهات مكاتب القرون الوسطى القشرية ، وكان العلم هناك بلاشك — عند العرب — مائة مرة أكثر انتشارا ، وكان هو الملهم الحقيقي لحركة المدارس والجامعات التي قامت في القرون الوسطى ؟ فانظر كيف يكتب التاريخ إلى اليوم متبعاً فيه هوى الدين يعني النصراني .

ولم تكن حرية الفكر في الأندلس ، التي أقل ما يقال فيها إنها كانت حالها أعلى وأجل بكثير منها في الممالك النصرانية ، لم تكن هي وحدها تغذي حبّ العلم والولوع به ، بل كان يثيره إجلال العلماء الذي زال من الدنيا بزوال دولة الأندلس ، ولم يرجع بعد إلى الدنيا ، ولم يكن الخلفاء يقتصرون على إكرام أكابر العلماء بالجوائز والصلات العظام من المال ، بل كانوا يتخذونهم أصدقاء خاصة وأصفياء ويولونهم أجلّ المناصب في الدولة والقصر . وكان لملوك العرب رأي صائب ينبغي أن يكون قدوة لجميع المدنيات ، وهو الرجال اللائقين بتدبير المملكة وإدارة شئونها ليس البلغاء في الأقوال أو المكرة ذوي الكيد والدسائس ، بل رجال العلم الذين برهنوا على كفاياتهم بسمو أفكارهم

(٨٦) يريد ذلك قول الشاعر :

أصبحت فيمن له دين بلا ادب
ومَن لـه ادب خالٍ من الدين
بقيت فيهم غريب الشكل منفرداً
كبيت حَسان فى ديوان سحنون

وثقوب أذهانهم . ولم يكن العلماء في الأندلس يعيشون في المعامل المظلمة ، ونظر الناس واعتبارهم منصرف إلى الأشراف والأجناد ورجال السياسة . بل كان العلماء من أكثر الناس مالاً ونعمة ، وكان الناس لهم أشد حسداً ، ولم يكونوا يحسدونهم على قصورهم الملكية وكثرة خدمهم وحشمهم ، بل على علمهم . وهذا يدلنا على أن الأمة كلها كانت محتلفة بالعلم والأدب عارفة قدرهما . ولم تكن النساء محرومات من المشاركة في ذلك ، وتجد في تألف أسكوت كثيراً من فضليات الأديبات منهنّ . وترى أن النساء كن يساجلن الرجال في المحافل العامة ، حيث كان الحائزون قصب السبق في النظم والنثر ينالون جوائرز عظيمة .

ولاينبغي للأنسان أن يغلو ويتجاوز الوسط إلى الطرف الآخر ش فيزعم إن العلم في الأندلس كان قاصراً على زخرف القول والتطفّل الظريف ش أنّ الماهر في نسج الألفاظ . كان أسعد الناس حظاً يعيش الترف والكسل ! كلا ش فأنّ نشاط العلماء في أعمالهم كان مدهشاً فقـــد وصلت إلينا أمثلة رائعة من بدايات علومهم التي تفوق نهايات غيرهم . وجريدة اعمال المشهورين من علمائهم بلغت من العظمة إلى حدٍ يكاد المرء ألاّ يصدّقها . ولكن أسكوت أخبرنا بأن كتّاب العرب – مع سعة خيالهم وإبداعهم في الوصف وتأنقهم فيه – صادقون فيما يذكرونه من الحوادث .

وقد نسبوا الى ابن الطفيل ألفاً ومائة كتاب في الفلسفة والتاريخ والطب ، وأنّ ابن حزم ألف اربعمائة وخمسين مجلداً في الفلسفة والقانون (الفقه) ، وكانت لهم معلومات عدّة تزيد مجلدات إحداهن على خمسين مجلدا . وعدد المؤرخين منهم يزيد على ألف على ما قيل . فللّـه كم ضاع من علم وأدب كان طعمة للنيران التي أوقدتها أيدي الرهبان حين : « طرد الأسبانيون الكفار من أوروبا » كما يزعم المدرسون . وكان قسم من تلك الكتب في علم الكلام ، فلا تستحق أن تعتبر هنا . كان علماء المسلمين قد جاءوا الأندلس من كل رجا

من أرجاء الدنيا ، وأحياناً كان يتسرب إليها المتعصبون من أهل إفريقية فيؤيدون السلفيين الجامدين وينشأ غمام مظلم في سماء الوجهة العقلية الأسبانية بتافه قول من قال : « إنّ الضعف الوحيد الذي كان في أهل الأندلس إنما أتاهم من قبل دينهم » ، ومن الواضح أنّ أكثر علمائهم اختصاصاً بامور الدين هم الفلاسفة ، وإنهم صرحوا جهرة بذم علم الجدل الكلامي حتى الأسلامي منه . وكانوا يعرفون جميع ضروب الفلسفة : هنديّة كانت أم يونانية ، إلاّ أنّ أرسطو كان هو المعلمً الأكبر في نظرهم . لما تكلم الشاعر الكاثوليكي دانتي في القرن الثالث عشر على الفلسفة لم يذكر ولا رجلاً واحداً نصرانياً ، إلاّ ذكر بعده ابن سينا وابن رشد ، وساوى بينهما وبين المعلم الأكبر في الشرف ، حيث سمى الجميع : « آل بيت الفلسفة » ، وذلك يدلنا على أنّ الفضل في النهضة الفكرية في أوروبا يرجع إلى العرب الذين أحيوا فلسفة اليونان بعد دروسها ، قبل النهضة الأخيرة الأوروبية بأربعة قرون .

وكان أرسطو يكره الهراء الذي يسمى فلسفة إفلاطون في الألاهيات وماوراء الطبيعة ، وكان أرسطو أفضل من عرفت العرب من الحكماء المتقدمين ، وأعظم تحقيقاً للمسائل العلمية . وإنه ليزيدنا عجاباً بهذه الأمة — أمة الشعراء وعشاق الجمال ، أنّهم قدسوا أرسطو حتى كادوا يؤلهونه . وما بلغ عمر ابن سينا ستة عشرة سنة ، حتى صار من كبار العلماء ، وصار وزيراً عظيماً وهو ابن ثلاثين . وأفيروس واسمه الحقيقي : ابن رشد ، هو الذي ألّف الشرح الشهير لكتاب أرسطو ، وذكره دانتي (٨٧) في كتابه : الكوميديا الألهية ، وهو الذي أثنى عليه حتى الراهب (سافوناررولا Savonarolla) وقال فيه : « رجل كانت له عبقرية ربانية ، وكان مكباً على الدرس ومنهمكاً فيه ، حتى إنه لم يترك الدرس إلا ليلتين في حياته : ليلة عرسه ، وليلة وفاة والده » .

(٨٧) انظر لمحمة من سيرته فى الموسوعة العربية الميّسرة (٧٧٨) .

وكان ابن رشد ، وهو من فلاسفة العرب ، طبيب الأمير ورئيس قضاة قرطبة ، وقد خدم فلاسفة العرب العلم والفلسفة سواء ، وكان على ذلك المتخصصون في العلوم هم الذين خدموا العالم أعظم خدمة ولا سيما الرياضيات والفلك والكيمياء والطب .

الفصول الطوال الثمانية والعشرون التي يحتوي عليها كتاب أسكوت ليست إلاّ إشارة مختصرة لأعمال العرب العظيمة ، ولا ينصفهم بأعالهم إلاّ مجلد ضخم .

وكان علم الهيأة من أجلّ علومهم التي هذّبوها ، وكان علماء الفلك في بغدادهم الوارثين لعلوم بابل والأسكندرية ، وانتقل ذلك إلى الأندلس . وكانت بيوت العبادة – المساجد – تستعمل مراصد لمراقبة حركات الأجرام السماويّة، كما كان في إابل . فكانوا يرصدون النجوم على رءوس المنائر . ولعل الكدانيون علماء الفلك منهم . قد اكتشفوا كلّ مايمكن اكتشافه بالعين المجرّدة . ولكن علماء الفلك من عرب الأندلس . كانت لهم آلات ذات دقّة وإحكام ، مركبّة على رءوس المنائر . ولم يكن عندهم (تلسكوب) طبعاً ، وإن كانوا هم الذين وضعوا أساس علم النور والمرئيات . وروجربيكى (Roger Bacon ١٢١٤ – ١٢٩٢) الفيلسوف العالم الأنكليزي ، مدين لهم بأكثر مما يتصوّر المعجبون به من الكاثوليكيين . وكانت عندهم عشرة أنواع من الاسطرلاب وعدّة آلات أخرى عدا ما عندهم من الكرات الأرضيّة والسماويّة . وقد اكتشفوا أنّ (الصّاعقة) . وتسمى في غير إسبانيا من بلاد أوروبا : (النجم الثاقب) كتلة كثيفة تدخل جوّ الأرض . ولهم رأي صائب في ارتفاع الهواء وقلة كثافته . ووضعوا جدول لحركات النجوم ، ووضعوا أوّل استنباط مدقّق لطول السنة . وأدركوا السّذوذ الواقع في مدار الأرض . ووضعوا رقوماً للتعاقب الاعتدالين .

والكيمياء الأولى لفظ عربيّ ، وكذلك الجبر . وهناك ألفاظ أخرى عربية تذكرنا بما للمسلمين علينا من فضل في الوجهة العلمية . لقد استنبط العرب المسلمون قواعد الكيمياء ، ولو أنّ مدنيتهم أُبقى عليها واستمرّ تقدم ثقافتهم لكنا اليوم نعيش في عالم أعجب وأرقى مما نحن فيه . والعرب هم الذين اخترعوا البارود لا أهل الصين كما يتوهّم العامة ، ولست أعني أنّ اختراع البارود نعمة ، وإنما ذكرته آية على خصب عقول العرب وأنّه من ثُمرات علومهم ، وهم أول مَن صنع البندقيات ، وصُنعت المدافع في القرن الثالث عشر . ولا شك أنّ الكيمياء القديمة هي الصورة الابتدائية للكيمياء الحديثة . ولقد كان فيها ضياع عظيم للأوقات في تتبّع الأوهام ، ولكن من الواضح أن يجتاز ذلك الطور قبل أن يصل إلى تحليل المركبات المادية وردّها إلى عناصرها الأولى .

ولهم فضل عظيم في السّبق إلى خدمة الطبيعيات لمهارتهم في الرياضيات ، ورسموا جداول للثقل النوعي أو الجاذبيّة الأرضيّة . وقدّروا تخميناً دقة الجاذبيّة الشَعرية نسبة إلى الشعرّة لدقّتها — وهم المخترعون الحقيقيون لبيت الأبرة المسماة عند العامة بالبوصلة ، وأمّا أهل الصين فأنما أوصلوا إلى العرب علم مناسبات الأبرة المغنطيسيّة ، والعرب هم الذين ركبوها في دائرتها ، واتحفوا الملاّح بهذه الآلة التي لاثمن لها عنده . واخترعوا الساعة الكبيرة ذات (البندول) والعجلة . واتقنوا الميزان ، وهم الذين أبدلونا الرقوم العربية بالرقوم الروميّة الثقيلة المتعبة ، وهم الذين استنبطوا قواعد علم النور والمرئيات التي هذّبها فيما بعد روجر بيكن ، ووضعوا قواعد الكهرباء التي بني عليها جربرت (Gerfert) مباحثه . وحتى علم طبقات الأرض (الجيولوجيا) قد اشتغلوا في أساسه ، ووقفوا على السنّة الكونية في التفتّت ودرسوا طبيعة الصخور .

وأما علم المعادن ، فقد خدمه حكماء العرب في القرن العاشر . قال الدكتور وود ورد (Woodward) في كتابه (تاريخ علم طبقات الأرض (History of Geology) : « ومن الذين ألفوا في صورة المعادن وتركيبها الطبيب « ابن سيناء » ، « على حين كان العرب هم قادة العلوم في الغرب » . وقال الأستاذ فوريز (Forbes) في كتابه : تاريخ علم الهيأة (History of Astronomy) : « وابن رزفلة من أهل طليطلة أضاف تحسيناً عظيماً إلى الجداول الشمسية » . وقال الأستاذ ميال (Miall) في كتابه : تاريخ علم الحياة (History of Biology) : « عند الكلام في العلوم على وجه عام ، لقد تقدمت العلوم بسرعة تحت حكم الخلفاء » . وقال السير ادوارد ثورب (sir Edward Thorpe) في كتابه : تاريخ الكيمياء (History of Chemistrys) : « لقد تقدم علم الكيمياء الحديثة تقدماً معتبرا » ، والحقيقة أنك لا تجد علماً من العلوم إلاّ والفضل الأكبر فيه للمسلمين من أهل المغرب وأهل الأندلس . وأعظم من ذلك كله أنّ لهم الفضل علينا في إحياء العلوم وبثّ روحها وعزمهم العظيم على أن يجدوا قواعد صحاحاً لسنن الطبيعة الحقيقية ، وإن كانت منعت من التقدم بضعة قرون بسبب ضغط الكنيسة ، ولكن لم يمكن محوها من ذهن الأنسان .

وسجيّة الأنسانية الكاملة التي كانت متمكنة من العرب المسلمين ، حملتهم على أن يعنوا عناية خاصة بعلم الطب ، وكان علم الكيمياء عندهم في أوّل الأمر إنما هو علم إضافيّ لتكميل علم الطب ، أي علم العقاقير . ووجد العرب المسلمون في هذه الوجهة أمامهم عقبة كئوداً بسبب المتعصبين في التصدي لتشريح أموات البشر . ولكن لاشك في أنّ كبار مدرسي الطب العرب شرّحوا الحيوان ، بل لانستبعد أنهم شرحوا أجساد الأناسيّ خفية . وعلى كلّ حال فخدمة الأطباء العلمية ، كانت قد ارتفعت هناك إلى مستوى عالٍ ، وكانت بقية أوربا في الحضيض الأسفل وكان أكثر العلماء كيفما كان علمهم

ماهرين في الطب ، ويروى أنّ دور الأطباء ، حتى أكابر الأغنياء منهم ، كانت مفتوحة في كلّ وقت للفقراء ، وهم الذين أدخلوا كثيراً من العقاقير إلى أوروبا .

ولم يكونوا في خدمة التاريخ ، أقلّ حماسة منهم في خدمة العلوم والفلسفة والشعر . وتقدم علم تخطيط البلدان (الجغرافية) عندهم تقدّماً أساسياً ، لأنّ العرب كانوا ملاّحين شجعاناً حذّاقاً في الملاحة في وقتهم . فكانت رحلهم واسعة على قدر طموحهم وولعهم الشديد بحب الاستطلاع والتنقيب . وليس فضلهم في خدمة علم النبات بأقلّ مما سبق ، لأنّ الخلفاء بعثوا العلماء لمراقبة الأعشاب والبقول عن كثب في جميع نواحي اسبانيا . وكانت حدائقهم غنيّة على مقتضى علم النبات تحتوي على طرائف الشرق والغرب . وكانت عندهم أيضاً طرائف أنواع الحيوان ، لدرس علم الحيوان ، ولهم ملاحظات وتنميهات في التاريخ الطبيعي تختلف عن القصص الجاف الذي يرويه أهل البلدان الأخرى .

وهذه الأخبار – وإن كانت مختصرة جداً ، فهي كافية في دلالة القارىء على أن العرب المسلمين هم الذين وضعوا فاتحة هذه المدنية الجديدة في أهم نواحيها . والحق أقول : إن هلال ثقافتهم الذي يبدي ويعيد المقررون في تقريره ببلاغة ، ويسمونه : « طرد الكفّار » ، قد اوقف رقي النوع البشري مدة من الزمان . ومهما كان ، فلم يمكن إطفاء أنوار علومهم كلّها ، ولهم اولا ، ثم لليونانيين الأقدمين بواسطتهم ، يرجع الفضل في ايجاد طلائع العلم من النصارى ككربرت وروجر بيكن وألبيرت الكبير (Albert she Great) ١١٩٣–١٢٨٠ م ، وكروسست (Robert grosseteste) ١١٧٥–١٢٥٣ ، فهم الذين علّموهم .

فاقرأ مثلاً سيرة كربرت ، تجده قد ولد في جنوبيّ فرنسة ، وتعلم في برشلونة ثم في جامعة قرطبة فكل ذرة من علمه المعبر جاءت من العرب المسلمين . فتح كربرت مدرسة في ايطاليا ، فقامت قيامة الرهبان وأثاروا الرعاع عليه ، فأحرقوا مدرسته وكسروا ادواته وشتتوا شمل تلاميذه . والحكام الماديون ، لم يسعهم إلا أن يكونوا عالمهم النصراني الذي ليس لهم غيره ، فمساعدتهم صار أسقفاً ، ومن مساخر التاريخ انه صار بعد بابا وسمّى : (سيلفيستر الثاني) وكان ذلك في أسفل عصور البابويّة . وبعد اربع سنين مات ، وهناك تهمة قويّة أنه مات مسموما ، فلعنت الكنيسة ذاكراه ، ثم هي اليوم تفتخر به .

لكنّ روح علوم العرب المسلمين الحقيقية لم يمكن قتلها ، فثقب نور مدنيتهم المشرق ضباب الخرافة والجهل ، ونتج شيئاً من الحياء ومكارم الأخلاق ، وحرّك رغبة اوروبا في العلوم العقلية . وفي القرن الحادي عشر (التالي لعصر قرطبة الذهبي) أخذت اوروبا تخرج من بربريتها ، ومعظم أسبابه التقدم السياسي الذي نشأ عنه التقدم الاقتصادي ، فصارت القرى مدنا ، والمدن الصغيرة امصارا ، والعامة احرزوا قسطاً من العلم ، والأشراف طمحوا إلى المعالي . ولما حصلت اليقظة الفكرية في الممالك النصرانية ، كان لزاماً أن تؤثر فيهم المدنية الأندلسية الزاهرة آثارها .

وليس هناك موضع ، اسفت على ضيق المجال فيه طبقاً لبرنامجي ، مثل ما أسفت عليه في هذا الكتاب ، لأن تاريخ العرب المسلمين العلمي عظيم ، وخدمتهم للنوع الأنساني عظيمة جداً ومهمة . وقد غمط أكثر المؤرخين حقهم ولعبت أيدي المؤلفين المتعصبين لدينهم – يقصد النصارى – دوراً ظعظيماً ، ومكروا مكراً كبارا في إخفاء فضلهم ، فوجب عليّ أن اقف وقتي أؤلف على الأقل ستة كتب على الأقل ، مثل هذا في الأشادة باثارهم .

ذلك ما قاله مؤلف نصراني هو العالم الشهير المصنف الكبير جوزيف مككيب (Joseph maccab) الـذي ولـد سنـة ١٨٦٧ م وألف (٢٥٠) كتاباً من أهم الكتب في الفكر الحديث ، فيجّله الأمريكيون حتى جعلوه أكبر عالم في الدنيا .

ولست أجهل أن المعلومات الواردة في كتابه متيسرة في المصادر الأندلسية ، ولكنني آثرت أن أنقلها عن كاتب غير عربي ولا مسلم ، حتى لا يتهم بالتحيز والانحياز ، وإنما الأعمال بالنيات ، ولكل امريء ما نرى .

الكارثة

ولما ضعف أمر العرب المسلمين في الأندلس ، بسبب تفرقهم واختلافهم وتنازعهم ، غزاهم الأسبانيون ، وأخرجوهم من الأندلس مدينة بعد مدينة . ولا اريد أن استصغر من شأن الغزاة الأسبان وأعمالهم ، ولكن إذا حللّناها نرى أنها لا تشتمل على شيء من الخوارق ، إذ أعلنت الحروب الصليبية — أي الغزوات الدينية — وكانت من الفضاعة والقسوة مثل الحروب الصلليبية التي غزا فيها البابا أنوسنتا الثالث الألبجينيين (٨٨) . فالصلبان التي يزين

(٨٨) نسبة الى (البجنس Albigens) ، وكانوا خوارج على الدين المسيحى ومبتدعين فيه فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، وكانت عقيدتهم مشبعة بالزهد والتقوى ، ولكنهم كانوا يخالفون القسيسين ، وينقمون عليهم ماكانوا يرتكبونه من الفساد ، فاتحد القسّيسون وفى مقدمتهم البابا ، وعذّبوهم أشدّ العذاب ، وكانت غاية هؤلاء القسيسين الاستيلاء على الماديات من متاع الحياة الدنيا لاغير ، وبضوا مجازر ذبحوا فيها خلقاً كثيراً وقتلوهم تقتيلاً فضيعاً . وكان الألبجينيون قد اخذوا بشيء من ، المدنيـة ، ولكن المذهب الكاثـوليكى وقف عقبـة كئوداً في طريقهم ، وكان الباب انوسنت الثالث المغرور ، قد أعلن الحرب الدينية عليهم ، فظهرت حينئذ صفحة من افجع صفحات التاريخ ، وابرزت العصبية نفسها فى افضع صورة واحلكها ، وقتلوا آلافاً من اولئك المساكين . ومن المعلوم أنّ الألبجينيين دافعوا عـن انفسهم دفـاع المستميت ، ومع انّ الكنيسة حشدت جميع قواها عليهم ، فقد خسرت كثيراً من العدد ، حتى كسرت شوكتهم واحرقت منهم مائتين فى يوم واحد ، واصبح تاريخهم احلك صفحة فى العصور المظلمة .

(جوزيف ماك كيب فى كتابه : حضارة العرب فى الأندلس ص (٦٤)

الأمراء والجنود صدورهم بها من الانكليز والفرنسيين والقشتاليين ، كانت هي الأذن في إطلاق العنان للنفوس الأمارة بالسوء في النهب والسلب والأعمال الوحشية (٨٩) .

تقدّم الصليبون ، وهم مزيج من كل جنس إلى قرطبة وإشبيلية في القرن الثالث عشر الميلادي ، ومن ذلك العهد أخذت قرطبة التي كانت في علياء المجد تتقلص وتتضاءل ، حتى صارت قرطبة القرن التاسع عشر الميلادي قرية حقيرة . ودمّر هؤلاء الصليبيون كل آية من)آيات العرب المسلمين في الأندلس وإن دقّت ، كما دمّروا ذكريات فنونهم ، حتى سووا كل ذلك بالتراب . نعم ، بقيت هناك منارة صغيرة ولكنها فخيمة ، تسمى : (جيرالدا) ، لتخبر العالم ماذا خسره في الأندلس . وقد عمد اولئك الهمج إلى الآلات العلمية فحطموها وجعلوها رميما ، لأنهم كما قال اسكوت : « كانوا يعتقدون اعتقاداً جازماً ، أن تلك الآلات خطرة ، ويظنون أنّها آلات جهنميّة لأعمال السحر واستخدام العفاريت » . وأخرجوا الكتب ، وكانت لا تُحصى كثرة ، وجعلوها أكوماً في الأزقة ، واوقدوا فيها التنيران . وأسلمت القصور المشيدة الجميلة والحدائق البهيجة لأيدي الخراب والضياع . ولما رأى الملك الأسباني أنه ليس له قصر ملكي في المدينة التي كانت أكثر المدن مساكن عالية وقصوراً فخيمة ، أفاق من سِنته . وبعث في طلب الصنّاع المتفننين والعَمَلة من العرب المسلمين ، فبنوا له : « الكزر » القصر الذي نزوره اليوم ، وحجراته مثل المقصورة المسماة : « مقصورة السفراء » ، تخبرنا أن العرب المسلمين كانوا يعرفون كيف يعيشون .

---

(٨٩) يعنى انه بمجرد حمل الصليب والتوجّه لغزو المخالفين ، يحملّ للغازى كل شىء يريده فيمن يغزوهم ، والصليب يشفع له وينقذه من آثامه وظلمه .
(جوزيف ماك كيب فى كتابه : حضارة العرب فى الأندلس ص (٦٥)

استراح الأسبانيون قرنين كاملين إلى جوار العرب المسلمين ، وبقي الشعبان عائشين في سلم وأمان كالأخوين ، وكان الاسباني بطبعه يحب أن يعيش مع جيرانه في سلام ، ويعظم الشعب الذي كان يراه بالغاً ذروة العبقرية . ولكن القسيسين الذين بلغوا في العصبية الحضيض الأسفل ، كانوا يضادون ذلك الميل ، فما زالوا يفتلون للحكّام في الذروة والغارب ، ويحرِّضونهم على عدم التسامح في المدن النصرانية الجديدة مع القوم الذين كانوا هم بناتها وهم مزينوها ، وأخيراً نجحوا في مطلبهم ، وهو أن كل مسلم يوجد في بلدانهم يُخير بين أمرين : إما التعميد والتنصر ، وإما الجلاء(٩٠) فاختار العرب المسلمون الجلاء فرراً بدينهم وشعبهم ، ليعيشوا في جو أمانٍ واطمئنان ، فنشأت منهم مملكة في غرناطة عدد نفوسها ثلاثة ملايين نسمة ، وكان ذلك في القرن الخامس عشر الميلادي ، وهو من مخازي الأمم النصرانية ، فالبلاد التي نشاهدها اليوم في غاية الفقر والخراب ، كانت هي فردوس اوروبة في أيام العرب المسلمين .

وقد جلب العرب المسلمون مياه كثيرة من الجبال وأعالي الأنهار ، بسبب علمهم ونشاطهم اللذين ليس لهما نظير ، فوصلت الفلاحة والغرس بذلك إلى أوج رقيهما . قال اسكوت : « للقد فاقت في علوّ قدرها وأهميتها في نتاجها العملية ، جهود جميع الأمم المتقدمة والمتأخرة » ، ومقابلة زراعة العرب

(٩٠) ويناسب هذا المقام ، ماورد فى كتاب : (ماذر امريكا = الأمّ امريكا) للدكتور بوز الهندى ، فيما نقله عن القسيس الأمريكى : (كيلكى Gilkey من اكابر علماء أمريكا ، وهذا معناه : « هل نحن الأمريكيين نصارى حقيقة ، أم الشرقيون هم النصارى حقاً ؟ نرى أنّ الشرقيين يؤمنون بالمسيح ويتبعون اوامره ، ويستنكفون عن اتباع مذاهب الفربيين ، فيجب علينا معاشر الأمريكيين اما أن نثبت ادعاء اننا ، واما نتركها نهائياً ، لأننا نرى فى الشرق أنّ الأجنبى يعامل بكلّ لطف واحترام ، ويبذلون كلّ جهد فى اِسعافه بما يحتاج اِليه . وكم منا يعامل الشرقيين كما ينبغى أن يعامل به البشر » .
(جوزيف ماك كيب فى كتابه : حضارة العرب فى الأندلس ص (٦٦)

المسلمين بما كانت عليه اوروبا من البؤس والعدم على وجه العموم ، تجعل لهـا اعظم وقع في النفس والنتجية أن الأقوات كانت كثيرة ورخيصة في الأندلس ، وكانت أنواعا مختلفة ، وصارت غرناطة مثل قرطبة غنية وجميلة جداً . وكانت جنات الكرم والتوت الواسعة تؤتى أهلها أحسن الخمور وأجود الحرير . وكانت الفُرَضُ (٩١) التي وراء الجبال على المحيط ، تمدهم بجميع الطرف ومواد النعمة والرفاهية النادرة التي كانت توجد في قرطبة . وكانت الصناعات العربية الاسلامية أيضا في اوج ارتقائها ، وكانت هناك مقادير عظيمة من الجواهر تجعل فيها من الزينة والزخرفة مالا يأتي عليه الوصف ، وكان ذلك الزخرف في الأسلحة البديعة والحلل الفاخرة والأثاث النفيس .

ومن حسن الحظ ، بقي قصر الحمراء الملكي ، ليرينا الجلالة والتألق والابداع في فنون العرب المسلمين الأندلسيين ، وحتى هذه الدرّة ، أصابها ما أصابها على يد الأسبانيين ، وكانت سائرة في طريق الخراب ، لولا أن بقية أوربا وأمريكا أجبروهم على أن يقنوا شيئاً من الحيـاد ، وحتى في هذا اليوم يجد فيها الأنسان معنى لفظ : « ارض عبقر » حين يخرج من دهليزها المظلم إلى عرصة الأسود ، فيرى سواري المرمر الدقيقة كأغصان البان ، ويتملىّ بالنظر إلى سطور الأساطين المستقيمة وسقوفها المصبوغة بالألوان الزاهيـة ، إذا نظرت إليها خلتها زرابي أعجمية مرقّشة ، او رياض ازهـار بهيجة ، قـد اشتبكت فيها اشجار الصناعة العجيبة . ولها طنوف مشرفة ، قـد أُفرغت في قوالب بديعة ، يحار الواصف في وصفها . أما جدرانها ، ففيها من الترقيش العربي والتشجير والزخرف والأمثال والحِكَم المسطورة بأجمل شكل يذهل العقول ويروّع الناظرين . ولكن ينبغي لنا أن نتصورها في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين ، حين كانت الثياب التي تُرى فيها كلّها من الحرير الخالص

(٩١) تعرف عند العامة بالموانى .

وحين كانت جدرانها تتلألأ بالألوان اللازوردية والأرجوان والذهب ، وحين كان الآس والاترج والورد ومباخر الفضة يحترق فيها عود الطيب تفعم جوّها بالروائح الطيبة . وكانت على الجبل المجاور لها وسهوله الواسعة الأرجاء عشرات الألوف من القصور الفخام التي لا تقل جمالا وإبداعاً في الذوق عن الحمراء ، إلا أنها أقل تلألؤاً بالذهب والفضة والجواهر . قال اسكوت : « ماذا عوّضنا الغازي الصليبي القشتالي الهمجي تلك القصور ؟ وأي فائدة يجنيها النوع البشري من وراء تخريبها ؟ ! فليجب عن هذا السؤال أولئك الذين يمجدون طرد (الكفّار) من اوروبة . وكان الأسبان قد حشدوا جنداً عظيماً . أما العرب المسلمون فقد نقص عددهم من ثلاثين مليوناً إلى ثلاثة ملايين . ولم يكن ملك الأسبان فرديناند (٩٢) وملكتها إيزابيلا (٩٣) عديمي

(٩٢) فردينـــانـد الخامس (Ferdinand) ملك قشتالة وليون (١٤٠٥ ــ ١٥١٦م) تزوج بابنة عمه ايزابيلا سنة ١٤٥٩ م ، وكانت ابنة الملك هزى الرابع ، وانما تزوج بها ليتخذ ذلك وسيلة الى نيل الملك بلامشقة . ولما مات الملك المذكور اجتهد فرديناند أن ينادى بنفسه ملكا ، ولكن ايزابيلا كانت داهية مكارة ، فرأى فرديناند انه لا يتمكن من اخضاعها ، فاتفق معها على أن يتشاركا في الحكم ، وكانت اخلاقه سيئة ، يدل على ذلك أعماله الرذيلة التى ملأ بها حياته ، وكان يفخر انه خدع لويس الثاني عشر ملك فرنسا اثنتي عشرة مرة . كما نقض عهـده الذى اعطـاه الى كريستوفر كولومبوس ومن المحقق أنه كان كلما عقد معاهدة مع اى شخص كان ، يترك فيهـا ألفاظاً يمكنه أن يتخذها وسيلة لنقض العهد . وكان يضطهد العلماء الذين لا يوافقونه ويغتالهم ، (انظر جوزيف ماك كيب ــ حضارة العرب في الأندلس ص ٦٨ .

(٩٢) ايزابيـــلا (Jsabella) (١٤٥١م ــ ١٥٠٤م) ملكة قشـــتالة ، استولت على الملك سنة ١٤٧٤م ، داهية مكّارة متعصّبة ، بذلت جهدها في تجديد المحنة وتعذيب المسلمين ، وارتكبت خطايا كثيرة باسم الدين . واما أحوالها الخاصة فلا تغبط عليها ، لأنها كانت تفتخر بأنها لم تغتسل في حياتها الا مرتين : يوم ولادتها سنة ١٤٥١م ، وليلة عرسـها سنة ١٤٥٩م ، وغسّلت حين ماتت سنة ١٥٠٤م ، فتمت لها الغسلة الثالثة ، والحقيقة أنها لم تغتسل بأرادتها الا مرة واحدة ، وهى في ليلة عرسها ، لأن غسلها يوم ولادتها وغسلها يوم موتها ليس من عملها .
جوزيف ماك كيب ــ حضارة العرب في الأندلس (٦٩) .

شهامة وعظمة كشهامة العرب المسلمين وعظمتهم فقط ، بل لم يكن لهما شيء من المروءة العامة والحياء ، أغار هذا الملك على اموال العرب المسلمين ، فنهبها وتركهم يموتون جوعاً ، وبذلك قهرهم وألجأهم إلى التسليم . حتى المسيحية الليدي تشارلون بونج ، رق قلبها لما أصاب العرب المسامين ، فقالت في ص (١٩٠) عن كتابها تذكر العهود والمواثيق التي اعطاها اذلاسبانيون العرب المسلمين والشروط التي اشترطها العرب المسلمون عليهم ما نصته : « تكون غرناطة حرماً آمناً لكل من يلتجىء إليها من المسلمين من جميع الأقطار ، ويكوش لأبي عبدالملك (الملك) ضيعة في ارض البشرات (البوجارا) ، وأن جميع السكان حتى الذين اسلموا من النصارى يكونون آمنين على أنفسهم وأموالهم وبيوتهم وسلاحهم وخيلهم ، ولا يُسَلِّمون إلا اسلحتهم النارية ، وأن يتمسكوا بشريعتهم وعاداتهم ولغتهم ولباسهم ، وأن تكون مساجدهم مصونة من أي استعمال في غير عبادتها . وأن دعاويهم تفصل على أيدي قضاتهم الحكمين من قِبَل الحكّام الأسبانيين ، وأنهم يؤدون لملك قشتالة من الخراج مثل ما كانوا يدفعونه لملوكهم لا غير ، وأنهم يعفون من دفع الخراج مدة ثلاث سنين ، ليستجمعوا ويستردوا ما فقدوا من أموالهم بسبب الحرب والحصار (٩٤) .

ثم أخذت المؤلفة النصرانية المسكينة تتململ في سائر ما بقي من صفحات كتابها . من أجل غدر الملك والملكة الأسبانيين ونقض عهودهما التي أعطياها العرب المسلمين ، إذ لم تشعر الملكة الناسكة بوجوب معاملة العرب المسلمين بمقتضى الشرف ، بل لم تشعر إلا بشيء واحد ، وهو أنه يجب أن تؤسس « مملكة نصرانية » ، كاد الناس يتميزون من الغيظ كيف يتولى عليهم حاكم محمّدي كافر ! أخذ من المسلمين أحد مساجدهم ، وجعل كنيسة : « وكان ذلك نقضاً للعهود » كما قالت المؤلفة النصرانية . ونفى المسلمين وعوملوا بأقسى معاملة بربريّة .

---

(٩٤) انظر التفاصيل في نفح الطيب (٢/٦١٥ ـ ٦١٦) وانظر النص الاسباني في : نهاية الأندلس (٢٣٠ ـ ٢٣٩) .

ولم ينجح القسيسون في تنصير العرب المسلمين ، مع أنهم احرقوا مصاحفهم وكتبهم كلها علانية ، وجُعل أمر المسلمين من الوجهة الدينية إلى رئيس أساقفة طليطلة « المقدّس » زيمنس . وباختصار فقد نقض كل سطر ممن سطور المعاهدة ، وغدر الأسبانيون وأهانوا عهودهم ، فهاجر قسم عظيم من المسلمين تاركين واراءهم كلما يملكونه ، ورحلوا إلى إفريقية ، ولكن القسم الأعظم بقوا هناك ينافقون بأظهار النصرانية ، ومَن لم يقبل النفاق منهم صاروا عبيداً للنصارى الغادرين . ثم جاءت المحنة : « محاكم التفتيش » ، فحرم عليهم كل شيء من امور دينهم ، حتى الاغتسال في حماماتهم ، ونهبت مئات من بيوتهم وطردوا من البلاد التي مدّنوها وعمروها ، ولم يبق منهم هناك إلا العجزة الذين لا يستطيعوش حيلة ولا يهتدون سبيلا ، فكانوا يسجدون للمسيح في الملأ ، ويبصقون عليه في خلواتهم ، لأن الكاثوليكيين لم يحسنوا معاملة المسامين ، ولم يكن لهم علم ، فكانت أعمالهم وأقوالهم ناشئة عن الجهل المطبق بعيد عن التحقيق والعدل .

يقول ستانلي لين بول المؤرخ اليقظ ، بينما كان زيمنس (٩٥) رئيس محاكم المحنة في اسبانيا يصدر اوامره بمنع المسلمين من الاستحمام ، واختيار صفة الوسخ التي يتصف بها مستعبدوهم ، كان نصف أهل اوروبة يرفضون دعاوى الفاتيكان ويتخذونها سخرياً ، وكان العلماء يضعون العلم الحديث .

(٩٥) زيمنس (Ximens) ـ (١٤٣٧ ـ ١٥١٧م) ، كان رئيس الأساقفة ، وفي أوائل ايامه وقعت عداوة بينه وبين المطران الكبير في طليطلة ، فحبس مدة من أجل مكايده ، ثم تعين قسيساً خاصاً لسماع اعترافات ايزابيلا ، وكان يتظاهر بالزهد والتقشف والورع الكاذب ، ولما استولى فرديناند وايزابيلا على غرناطة ، دعواه ليكون في خدمتهما هناك ، وهو الذى اشار عليهما بالكيد للمسلمين والغدر بهم ، ولم يقتصر على اتلاف جميع النسخ التى ظفر بها من القرآن ، بل كان يتلف كل ما وصلت اليه من الكتب العلمية والأدبية ، وهو الذى امر بنصب محاكم المحنة ←

ذلك ما ذكره جوزيف ماك كيب في كتابه حضارة العرب في الأندلس ، وما ذكره معروف بالتفصيل في المصادر العربية القديمة والحديثة ، ولكنني أثرت أن اقتبس ما ذكره هذا المؤلف المسيحي وغيره من المؤلفين المسيحيين ، لأنهم مسيحيون يتحدثون عن جرائم الأسبانيين المسيحيين في التخريب والتدمير واكتساح الحضارة والظلم والقتل والنهب والسلب والتنصير قسراً ، خلافاً لما فعله العرب المسلمون بالأسبانيين النصارى أيام الفتح الأسلامي للأندلس ، فما أكرهوا أحداً على اعتناق الاسلام ، ولا ظلموا أحداً ولا خانوا عهداً ، وتركوا أهل أسبانيا النصارى يمارسون عبادتهم بحرية في كنائسهم ، وكان بأمكانهم في أيام الفتح الا يتركوا اسبانيا واحداً يصر على التمسك بالمسيحية ، ولكنهم لم يفعلوا ، إذ : « لا إكراه في الندين ش قد تبين الرُّشد من الغيّ » .

وهذا هو الفرق العظيم بين المسلمين إذا حكموا وقدروا ، وبين غيرهم إذا حكم وقَدَر ش كأن الشاعر حَيْص َبَيْص أرادهم بقوله :

حَكَمْنَا فكانَ العفوُ مِنّا سَجِيَّةً
فلما حكمتم سال بالدم أبطحُ
فحسبكمُ هذا التفاوت بيننا
وكلّ إناء بالذي فيه يَنضح

(التفتيش) وتعذيب المسلمين تعذيباً كاد يحدث ثورة . وحينئذ ظهر بمظهره الحقيقي ، فأخذ يعيش عيشة الملوك . حتى انه لما مات فرديناند ، قام زيمنس ونصب نفسه نائباً للملك شارل ، لأنه كان غائبا . وتمتع برئاسة الوزارة عشرين سنة ، ثم عزل ، فمات غماً من أجل عزله . وكان قاسي القلب ، شديد الحقد لكل من يخالفه في الراى ، ولو كان من اهل دينه . وكان رئيساً لمحاكم التفتيش ، فقتل لفين وخمسمائة شخص ، وتحمل اثم دمائهم في ذمته» ، ولا شك ان اعماله القاسية احدثت ثورة ، ولكنه قضى عليها بمكره . وكان لا يستنكف أن يكون قائداً للجيش بنفسه ، متى اقتضت المصلحة ذلك ، انظر جوزيف ماك كيب ــ حضارة العرب في الأندلس (٧٢ ــ ٧٣) .

وليس من الممكن اتهام الامريكي جوزيف ماك كيب بالافتراء على بني جنسه ودينه والانحياز للعرب المسلمين ، لذلك آثرت اقتباس أقواله في هذه الدراسة .

وحريّ بي أن أنقل تلك العبارة الموجزة القويّة ، التي يُجمل فيها الدكتور (لي) ، وهو من أحدث الباحثين في هذا الموضوع ، مأساة العرب المتنصرين ، إذ يقول في مقدمة كتابه : « إن تاريخ الموريسكيين (٩٧) لا يتضمن فقط مأساة تثير أبلغ عطف ، ولكنه أيضاً خلاصة لجميع الأخطاء والأهواء التي اتحدت لتنحدر بأسبانيا في خلال قرن ، من عظمتها أيام شارل الخامس ، إلى ذلتها في عهد كارلوس الثاني » (٩٨) .

---

(٩٦) نظافة البدن التى كان الأقدمون يعتنون بها كل الاعتناء ، اهملت كل الاهمال بعد انقراض دولة الروم ، حتى أن أهل أوروبا لم يكونوا يغتسلون الا في أحوال خاصة ، وناهيك نهم كانوا يفرضون الغسل على من يريد الدخول في جماعة (تايتس) وهم امراء الحروب الصليبية ، ولذلك كانوا يسمونهم : فرسان الحمام . وكان الملوك والملكات يقتدون برعاياهم في عدم النظافة ، حتى أن الملك العظيم لويس الرابع عشر لم يغتسل قط ، بل كان يكتفي بالادهان بالعطور ، ولم تكن توجد حمامات في قصور الأمراء والأغنياء ، الا في القرن التاسع عشر الميلادى ، انظر جوزيف ماك كيب ـ حضارة العرب في الأندلس (٧٣) .

(٩٧) الموريسكيون Morisques هم النصارى الذين تدينوا بدين الاسلام عن رضى وطيب خاطر ، بعد دخول المسلمين الى الاندلس ، فلما تغلب المسيحيون على المسلمين وارادوا اعادتهم الى ملتهم الأولى ، فضلوا الهجرة الى بلاد الاسلام في المشرق والمغرب . اما كلمة : (مستعرب Mozarabe) فكانت تطلق على المسيحين الذين كانوا يعيشون تحت سلطة المسلمين ، وكانوا مع ذلك يستعملون اللغة العربية في جميع شئونهم العادية . اما كلمة : مُدَجَن (Mudejar فتطلق على المسلمين الذين كانوا يعيشون تحت نفوذ المسيحيين ، انظر مقال : مع الموريسكيين في بلاد الغربة ـ محمد محى الدين المشرقي ـ العدد ٢٤٩ من مجلة دعوة الحق المغربية ـ ص (٣١) ـ ١٤٠٥هـ .

(٩٨) نهاية الأندلس (٤) ـ محمد عبدالله عنان ـ ط ٢ ـ ١٣٧٨هـ ـ القاهرة .

ويعلق النقد الغربي الحديث على موقف الاسبانيين من العرب المسلمين بقوله : « ولو نفذت هذه العهود (العهود التي قطعت لمسلمي غرناطة) بولاء ، لتغير مستقبل إسبانيا كلّ التغيير ، ولجمع الامتزاج الرفيق بين الأجناس ، ولغاض الإسلام مع الزمن (٩٩) ، ولتفوقت المملكة الأسبانية في فنون السلم والحرب ، وتوطد- قوتها ورخاؤها . ولكن ذلك كان غريباً على روح العصر الذي انقضى ، وأفضى التعصب والجشع إلى المطاردة والظلم ، وأنزلت الكبرياء القشتالية بالمغلوبين ذلة مروعة ، فاتسعت الرشوة بين الأجناس على كرّ الزمن ، حتى استعصى الموقف ، وادى إلى علاجٍ كان من جرائه أن تحطم رخاء اسبانيا » (١٠٠) .

وعلى نفسها جنت براقش ، فقد كانت الأندلس بالمسلمين أستاذة الدول الاوروبية علماً وحضارة وفكرا ، وصناعة وزراعة وثراء ، فأصبحت إسبانيا بدونهم في الدرك الأسفل من دول اوروبة علموحضارة وفكراً ، وعصناعة وز راعة وثراء ، وكانت الأندلس أقوى دولة اوروبية بالمسلمين ، فاصبحت من بعدهم أضعف دولة اوروبية على الأطلاق . وقد خيل للذين طردوا المسلمين وشردوهم وفتكوا بهم في الأندلس أنهم احرزوا على الأسلام نصراً حاسماً ، ولكنهم تيقنوا بعد أن سبق السيف العَذَل أنهم احرزوا على أنفسهم لا على الأسلام نصراً حاسماً . وانهم خربوا بلادهم بأيديهم جهلاً وتعصباً وغرورا .

والدرس الذي ينبغي ان نتعلمه من مأساة الفردوس المفقود ، أن المسلمين انتصروا بعقيدتهم الراسخة ووحدتهم الصلبة : فلما تهاونوا بعقيدتهم ، وتفرقوا شيعاً . خسروا بلادهم وخسروا أنفسهم وذلّوا .

ذلك ما ينبغي أن نتعلمه من مأساة الفردوس المفقود . ولا ينبغي أنْ ننساه أبدا .

---

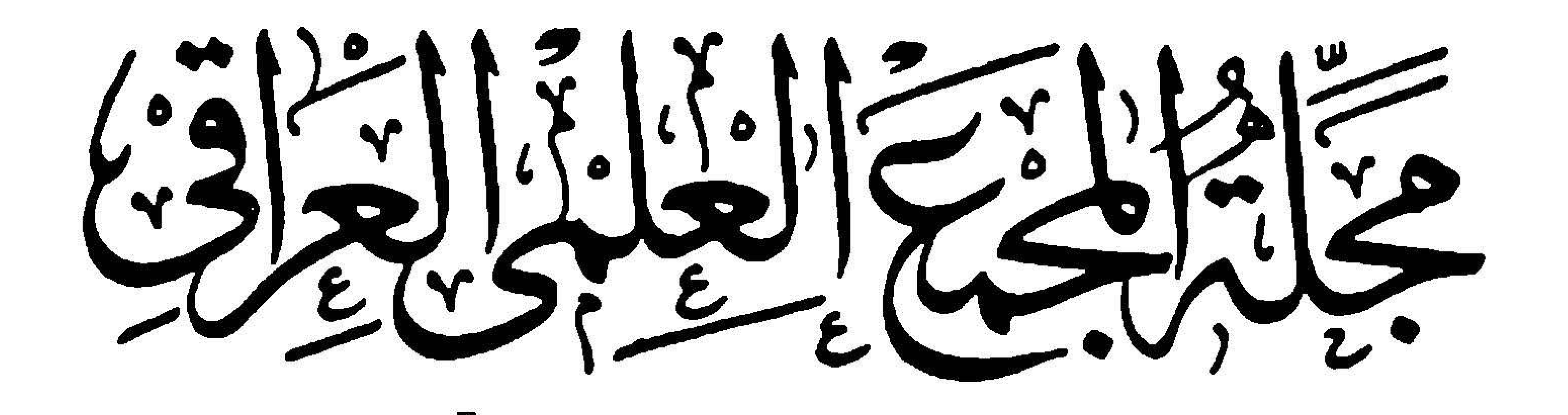
(٩٩) في ذلك نظر ، ولا أتفق مع راى المؤلف في هذا .

Dr. lea : the Miriscos, P. 22

الفهرس

الصفحة

تأبين الراحلين من اعضــاء المجمع





الجزء الاول ــ المجلد التاسع والثلاثون

بغـــــداد

شعبان ١٤٠٨هـ ــ آذار ١٩٨٨م